﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

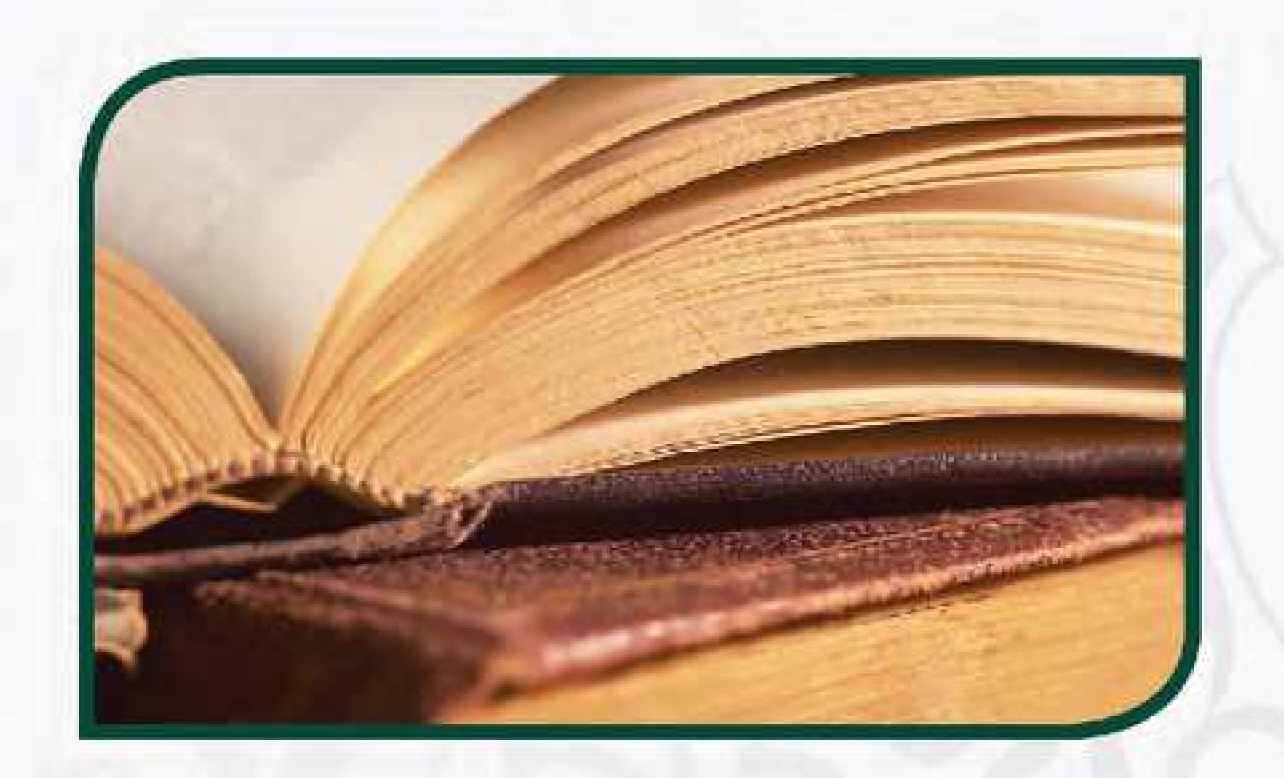
الإصلاح

لا يُصلحُ آخِرَ هذهِ الأُمَّة إلاّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَها

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة السابعة. العدد السادس والثلاثون: رجب/شعبان 1434هـ الموافق لـ ماي/جوان 2013م





عقيدة السلف في ولاة الأمور

د/سعود الدعجان



القاديانية



خلق الرحمة وأهميته في تربية الطفل

عز الدين رمضاني

في وجوب الصوم والإفطار مع الجماعة

أ.د/محمد علي فركوس

موقف الشيخ الإبراهيمي من الصوفية

حسن أيت علجت

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112. 6825

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَستَعينُه ونَستَغفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ له.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سورة آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سورة النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سورة الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

النقال: (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com



التقية السلفية..!!



مدير المجلة

إنَّ أحدَ المذعورين مِن انتشار الدَّعوة السَّلفيَّة في بلدنا، ممَّن استحكمت فيه عادة التَّهجُّم عليها وعلى المنتَسبين إليها، ولا يكاد يخلو له ظهور في وسائل الإعلام إلاَّ ومادَّة حديثه التَّعريض بالسَّلفيِّين، واستنفار الجهات الرَّسميَّة للوقُوف في وجههم؛ لأنَّهم في زعمِه الآسِن يهدِّدون المرجعيَّة الدِّينيَّة للوطن، ويمثِّلون خطرًا داهمًا؛ ووصل به الأمر إلى حدِّ التَّشكيك في انتمائهم لوطنهم.

كلُّ ذلك لم يشف غليله؛ فراح هذه المرَّةَ يطلقُ فريةً مفادُها أنَّ السَّلفيِّين يستَعملون «التَّقيَّة السَّلفيَّة»!! أي أنَّهم يتظاهرون بالقول بعدم جواز الخُروج على الحَاكم ومنع الإضرابات والمظاهرات وغير ذلكَ من المسائل ريثما تخلُفُ هذه الظُّروف الَّتي يعيشونَها اليوم ظروفٌ أخرى مواتية، لينقلبوا على قولهم، ويتركوا جميعَ هذه القناعات إلى فتاوى أخرى تأتيهم من مراجعهم مِن وراء البحار ـ على حدِّ كلامه ..

وهذه شقشقةٌ فيها تمويهٌ وتضليلٌ، وقلبٌ للحقائق وتغفيل؛ إذ كيف يُعقل أن يلجأ السَّلفيُّون إلى هذه «التَّقيَّة» وهُم يجهرون بدعوتهم في كلِّ وقت ومكان بالبنان والبيَان، والقَلم واللِّسان؛ بل حتَّى في سنوات القتل والإرهاب لم يرُعْهم تهديدٌ ولا وعيدٌ عن إذاعة ما يعتقدون؛ فكيف وقد آب النَّاسُ اليومَ إلى الأمن والطُّمأنينة؛ وحُلَّت عقدةُ التَّعبير وفُتح البابُ على مصراعيه، ليعبِّر كلُّ ذي رأي عن رأيه دون خوف أو وجل؛ لكنَّ هذا (الدُّكتور) المذعور لمَّا ألفَ السِّياسة وأساليبَها، وتعوَّد التَّلوُّن والتَّنقل من حزب إلى آخَر، خُيِّل إليه أنَّ الجميعَ على هَواه يسري، وفي مسالك السِّياسة يجري؛ والواقع يخالفه ويكذِّبه؛ لأنَّ السَّلفيَّة دينٌ يُتَّبع ويُرتضى، ومنهجٌ يُقتفى، يُراد مِن لزومه وجه الله والدَّار الأخرى.

والمسائل الَّتي ذكرها ترجع إلى لزوم الطَّاعة وعدم الخروج على الحاكم، وهو أصل عقديٌّ مقرَّرٌ عند أهل السُّنَّة قديمًا وحديثًا، فلا مجالَ للمُناورة أو المراوغة؛ والمنحرفُ عن هذا الأصل منحرفٌ عن السَّلفيَّة وإن تسمَّى بها.

إنَّ ركونَ الدَّعوة السَّلفيَّة إلى العلم الصَّحيح المبنيِّ على الدَّليل يمنحُها قوَّةً تستغني بها عن اللَّجأ إلى المواربة والكذب أو التَّخفِّي والكتمان؛ فهي دعوةُ الحقِّ الأبلج الواضِح، ولا حاجةَ لتدنيسها بشِعار الكَذب والنِّفاق «التَّقيَّة» الَّتي هي سِيما المنافقين واليهود والشِّيعة الرَّوافض الزَّائغين ـ أعاذنا الله من طرائقهم ومذاهبهم ـ.

فحُقَّ أن يُقال لصاحب هذه الفرية المفضُوحة: لقَد أبعدتَ النَّجعةَ وأزكمْتَ الأنوفَ بفريتكَ السَّخيفَة، فرُدَّها إلى كيسِكَ، ولا تعُد إلى مثلها، حتَّى لا يضحكَ النَّاسُ من قولِكَ؛ واعلَم أنَّ ميدان النِّزال لا يُقتَحم إلاَّ بالصِّدق والبُرهان.

في هذا العدد



التقية السلفية..!



القاديانية



أهمية معرفة أسماء الله وصفاته

عقيدة السلف في ولاة الأمور



موقف الشيخ البشير الإبراهيمي من الصوفية



خلق الرحمة وأهميته في تربية الطفل

العدد السابق



قواعد النشر في المجلة

- أن تكـون الموضوعـات مطابقـة لخطـة المجلـة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحـرَّر المقـال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكـون الكتابة على الكمبيوتـر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.



القاديانية

■ التحرير

لقَد نشرت إحدى الصُّحف اليوميَّة السَّيَّارة عندنا قبل أيَّام حوارًا مع أحدِ الجزائريِّين المنتَسبين ـ على حدِّ زعمه ـ إلى الطَّائفة القاديانيَّة الضَّالَّة، تقيَّأ فيه بعضَ تُرَّهات نِحلته الباطلة وخُزَعْبلات عقيدته المنحَرِفة، ونحن اليوم في زمن يزعُم أهلُه أنَّ النَّاس أحرارٌ في أديانهم ومعتقداتهم؛ وهذا ما تقرُّه الأنظمة الوضعيَّة وإلاَّ فهو أمرٌ مصادمٌ لصريح الإسلام الَّذي لا يقبل الرِّدَّة عنه.

كما لا يستقيمُ الاستطراد هُنا للحديث عن خطورة نشر مثل هذه الشُّبهات والأباطيل على عُموم النَّاس الَّذين تختَلف مستَوياتهم العلميَّة والعقليَّة والدِّينيَّة، فإنَّ هذا أمرٌ له وقتٌ آخر للتَّطرُّق إليه بشيءٍ من البيان؛ وأمَّا الَّذي دعا إلى زبر هذه الكتابة هو إبرازُ الصَّحيفة لعُنوان بالبُند العَريض مضمونُه قول هذا القَادياني الجَزائري: «الخلاف بيننَا وبينَ السَّلفيِّين قولهم بعَدم استمرار الوحي»

وهذا من أغرب أنواع التَّلبيس والتَّدليس وهو أن يحصر خلاف القاديانيَّة مع السَّلفيِّين فحسب؛ والحقُّ أنَّ خلافَهم مع جميع المسلمين على اختلاف نِحلهم وطوائِفهم؛ فهذه الفِرقة المسمَّاة بالقَاديانيَّة أو الأحمديَّة الَّتي ظهرت في الهند في القَرن التَّاسع عشر الميلادي على يد مؤسِّسها المتنبِّئ الدَّجَّال المدعو ميرزَا غُلام أحمد القَادياني الَّذي تدرَّج في دعوته من داع إلى الإسلام ومُدافع عنه، ليستَدرج النَّاسَ إليه إلى أن تحوَّل داعية إلى نفسه مدَّعيًا أنَّه نبيٌّ يوحى إليه كما يوحى إلى الأنبياء، وأنَّه المسيحُ الموعُود، وأنَّ النُّبوَّة لم تُختَم بسيِّد المرسلين محمَّد بن عبد الله ﷺ ـ كما هي عليه عقيدةُ المسلمين بصَريح القُرآن والسُّنَّة ـ. فكان يزعم أنَّه «أحمد» المذكور في الآية الكريمَة ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: 6]، وزعم أنَّه قد نُزِّل عليه، وأوحيَ إليه أكثر من عشرة آلافِ آية، وأنَّ مَن كذَّبه فليس بمسلم، وأنَّه من أهل النَّار، وأنَّه يجبُ على المسلمين أن يحجُّوا إلى قاديان؛ لأنَّها بلدةٌ مقدَّسةٌ ـ حسب اعتقاده ـ كمكَّة والمدينة، وأنَّها هي المقصودة في القُرآن بالمسجد الأقصى، فيقول في كتابه «الاستفتاء» (ص5): «بعثني الله على رأس المائة؛ لأجدِّدَ الدِّينَ وأنوِّر وجهَ الملَّة، وأكسرَ الصَّليبَ، وأطفئَ نارَ النَّصرانيَّة، وأقيمَ سنَّةَ خير البريَّة، ولأصلحَ ما فسَدَ وأروِّج ما كسَد، وأنا المسيحُ الموعود والمهدي المعهُود، مَنَّ الله عليَّ بالوحي والإلهام، وكلَّمَني كمَا كلَّمَ رسُلَه الكرام» [نقلا عن كتاب «التَّيَّارات الفكرية المنحرفة» (ص446)].

وغير ذلكَ منَ الضَّلالات الكفريَّة الَّتي جاء مصرِّحًا بها في كتبه كـ«التَّذكرة»، و«رسالة الذِّكر الحكيم»، وغيرهما.

ولم يكن يُخفي ولاءَه للمُستَعمر الإنجليزي ويصرِّح بما يشهد عليه أنَّه صنيعة البريطانيِّين: لمجابهة الحركَة الجهاديَّة الَّتي ظهرت في الهند آنذاك، لكونه يحرِّم شعيرةَ الجهاد ويعطِّلُها؛ ولمناوأة عَقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في شبه القارة الهنديَّة.

لقَد بادر علماءُ الإسلام في تلك الدِّيار بالتَّصدِّي لهذه الحركة الآثمة في أوَّل ظهورها؛ ومن أبرزهم الشَّيخ أبو الوفاء ثناء الله أمير جمعيَّة أهل الحديث في عموم الهند، حيث قام بمناظرة الأفَّاك «ميرزا غُلام» وأبانَ عوارَه، وكشَف خبثَ طويَّته، وانحرافَ نحلته؛ ولمَّا لم يستَسلم هذا الكذَّاب للحقِّ المبين باهَلَه الشَّيخُ أبو الوفَا على أن يموت الكاذبُ منهما في حياة الصَّادق، ولم تمرَّ سوى أيَّام قَلائل حتَّى هَلَك «الميرزا غُلام أحمد القَادياني» في عام 1908م، مخلِّفًا وراءه أكثر من خمسين كتابًا ونشرةً ومقالاً؛ كلُّها تدعو إلى ضلالاته وانحرافاته؛ وما توفي الشَّيخ أبو الوفا إلاَّ في حدود سَنة 1948م أي بعد



أربعين سنة رحمه الله رحمةً واسعةً.

ولَّما تيقَّن النَّاس من بُعد اعتقادات هذه الطَّائفة عن عقيدة المسلمين اتَّخذ المجلسُ النِّيابي الإقليمي لمقاطعة الحدود الشَّماليَّة في دولة باكستان قرارًا في عام 1974م بإجماع أعضائه، يعتَبر فيه الفئة القاديانيَّة بين مواطني باكستان أقليَّةً غير مسلمَة.

وقد صدَقُوا في ذلكَ وبَرُّوا؛ وبخاصَّة إذا علمنَا أنَّه في شهر ربيع الأوَّل عام 1394هـ الموافق أفريل 1974م انعقد مؤتمر برابطة العالم الإسلامي في مكَّة المكرَّمة وحضَره مائة وأربعة وأربعون وفدًا من جميع أنحاء العالم، وأعلنَ المؤتمر بالإجماع كُفر طائفة القاديانيَّة (الأحمديَّة)، وأنَّها نحلةٌ هدَّامةٌ خارجةٌ عن الإسـلام خروجًا كـامـلاً، وأنَّ معتَنقيها كفَّارٌ مرتَدُّون عن الإسلام، وأنَّ تَظَاهُرهم بالإسلام إنَّما هُو شعارٌ يتستَّرون به للوصول إلى أغراضهم الخبيثة، وطالب المؤتمر المسلمين بمقاومَة خطَر هذه النِّحلة الضَّالَّة، وكشف أهلها وفضحهم وعدَم التَّعامل معَهم، وعدم التَّزوُّج منهم، وعدم دفن موتاهم في مقابر المسلمين.

وقَد صَدرت قبلَها وبعدَها فتاوى متَعدِّدة من عدد منَ المجامع والهيئات الشَّرعيَّة في العالم الإسلامي، تقضي بكُفر القاديانيَّة (الأحمديَّة)، منها الجامع الأزهر والمجمَع الفقهي التَّابع لرابطة العالم الإسلامي، ومجمَع الفقه الإسلامي التَّابع لمنظَّمة المؤتَمر الإسلامي، وهيئة كبار العُلماء بالمملكة العَربيَّة السُّعوديَّة، هذا عدَا ما صَدر من فتَاوى عُلماء مصر والشَّام والمغرب والهند وغيرِها على اختلاف مذاهبهم الفقهيَّة.

وقد فشت هذه النِّحلة الباطلة في جهات بالهند وباكستان أين يعيش أكثر أتباعها، كما وُجد لها أتباعٌ في بقاع شتَّى منَ الأرض، ويعتقدون أنَّهم في زمن الخلافة الرَّاشدة الثَّانية وهم اليوم تحت الخليفة الخامس منذ سنة 2003م.

والآن مع ظهور وسائل الاتِّصال الحديثة ركب موجتها القاديانيُّون وأضحى لهم وجودٌ في القنوات الفضائيَّة ومحطَّات الإذاعة والتِّلفزيون، وبلُغات مختلفة، ومن أشهرها القناة الفضائيَّة (mta) النَّاطقة باللُّغة العربية؛ فكُن منها على حذر! ولم يتغيَّبوا عن الشَّبكة العنكبوتيَّة العالميَّة، حيث لهم فيهَا حضورٌ قويٌّ بخاصَّة في مواقع التَّواصل الاجتماعي، إضافة إلى المجلاَّت والكُتب وغيرها من الوسائل الَّتي تحت أيديهم، وينشرون ترجمَات محرَّفةً لمعاني القُرآن الكريم بمُختَلف اللُّغات، ومازالوا يبشِّرون بدينهم الباطل ليس بينَ الكفَّار والأعاجم فحسب، بل صاروا يتلصَّصون ويتربَّصُون للتَّسلُّل إلى ديار الإسلام وإلى الدُّول الإسلاميَّة العربيَّة السُّنيَّة في محاولة منهم لإيجاد مكان لهم في وسَط هذه الفَوضى السَّائدة في زمَن الثَّورات على حين غفلة من أهل الحلِّ والعقد.

كما أنَّ للقاديانيِّين نشاطًا رهيبًا في إفريقيا، ويستغلُّون في ذلك مجالات عدَّة كالعَمل الخيري والتَّطبيب وفتح المدارس والمعاهد وملاجئ الأيتَام، ونشاطهم التَّخريبي الواسع المتنوِّع يؤكِّد دعمَ الجهات الاستعماريَّة لهم.

في الأخير نقول: نعَم إنَّ الوحيَ الَّذي كان ينزلُ على محمَّد ﷺ قد انقطعَ بموته ـ عليه السَّلام ـ؛ لكن بقي وحيٌّ آخر لم ينقَطع وهُو وحي الشَّيطان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام: 121]، وقال جلَّ ذكره: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢﴾ [الشعراء]، وإنَّه لا يستَريبُ مسلمٌ معه مسكةَ عقل أنَّ ميرزا غُلام القَاديَاني قد أخذ بحظٍّ وافر ونصيب كبير من هذا الوحي الشَّيطاني؛ فهو لم يكن سوى دجَّال منَ الدَّجاجلة الَّذين جعَلوا ولاءهم للشَّيطان وحزبه ليَلبسُوا على أهل الإسلام دينَهم، وليخرِّبوا عليهم عقيدتَهم باسم الإسلام، وقد أبلغ في الوصف من وصف هذه الدَّعوة الآثمَة بقوله: «فهي ثورةٌ على النُّبوَّة المحمَّديَّة ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ، وعلى الإسلام، ومؤامرةٌ دينيَّةٌ وسياسيَّةٌ، إن وُجد لها نظيرٌ في الخَطر والضَّرَر على الإسلام ففي الحركة الإسماعيليَّة الباطنيَّة الَّتي تولَّى كبْرها عُبَيد الله بن مَيْمون القَدَّاح في القَرن الثَّالث الهجري، وأشكُّ أنَّها بلغَت مبلَغَ الأولى ـ القَاديانيَّةُ ـ في أصَالة الفَساد، ودقَّة المؤامَرة ومُعادَاة الإسلام» [«القادياني والقاديانيَّة» دراسة وتحليل (ص7)].

نسأل اللهَ أن يكفي الأمَّةَ شرَّ هذه الطَّائفة الضَّالَّة، وأن يحفظَ شبابَنا من شُبهاتها وتلبيسَاتها؛ وأن يثبِّتنا جميعًا على نعمة الإسلام والسُّنَّة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

فوائد من آية

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾

■ عمر الحاج مسعود

في هذه الآية المباركة بيانٌ لعداوة الكفَّار - على تباين عقائدهم - للمسلمين، وسعيهم الدَّائم لإطفاء نور الله، وصدِّهم عن سبيله، وفيها تأكيد أنَّ الله تعالى يأبى إلاَّ أن يتمَّ نورَه ويعليَ كلمته، وينصرَ أولياءَه ويخذلَ أعداءَه، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وفي هذه المقالة تفسيرٌ لهذه الآية وبيانٌ لأهمِّ فوائدها، وبالله التَّوفيق.

تفسير المفردات

■ ﴿يُرِيدُونَ﴾ **الإرادة**: المشيئة والقصد إلى الشَّيء، والضَّمير يرجع إلى اليهود والنَّصارى المذكورين قبل هذه الآية، ويدخل فيه جميعُ الكفَّار، فهم جميعًا يريدون إطفاء نور الله.

■ ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾ المصدر المسبوك من (أنْ) والفعل في محلِّ نصب، إي: إطفاءَ، **والإطفاءُ**: إخماد النُّور وإزالة الضَّوء بالنَّفخ أو إراقة الماء عليه، أو نحو ذلك، والمقصود هنا طعن الكافرين وافتراؤهم ومحاربتهم لنور الله.

■ ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ النُّور الضَّوء، ونورُ الله القرآن والإسلام ودعوة محمد ﷺ، قال السُّدِّي: «يريدون أَنْ يُطْفِئُوا الإِسْلام بِكَلامهم»(1).

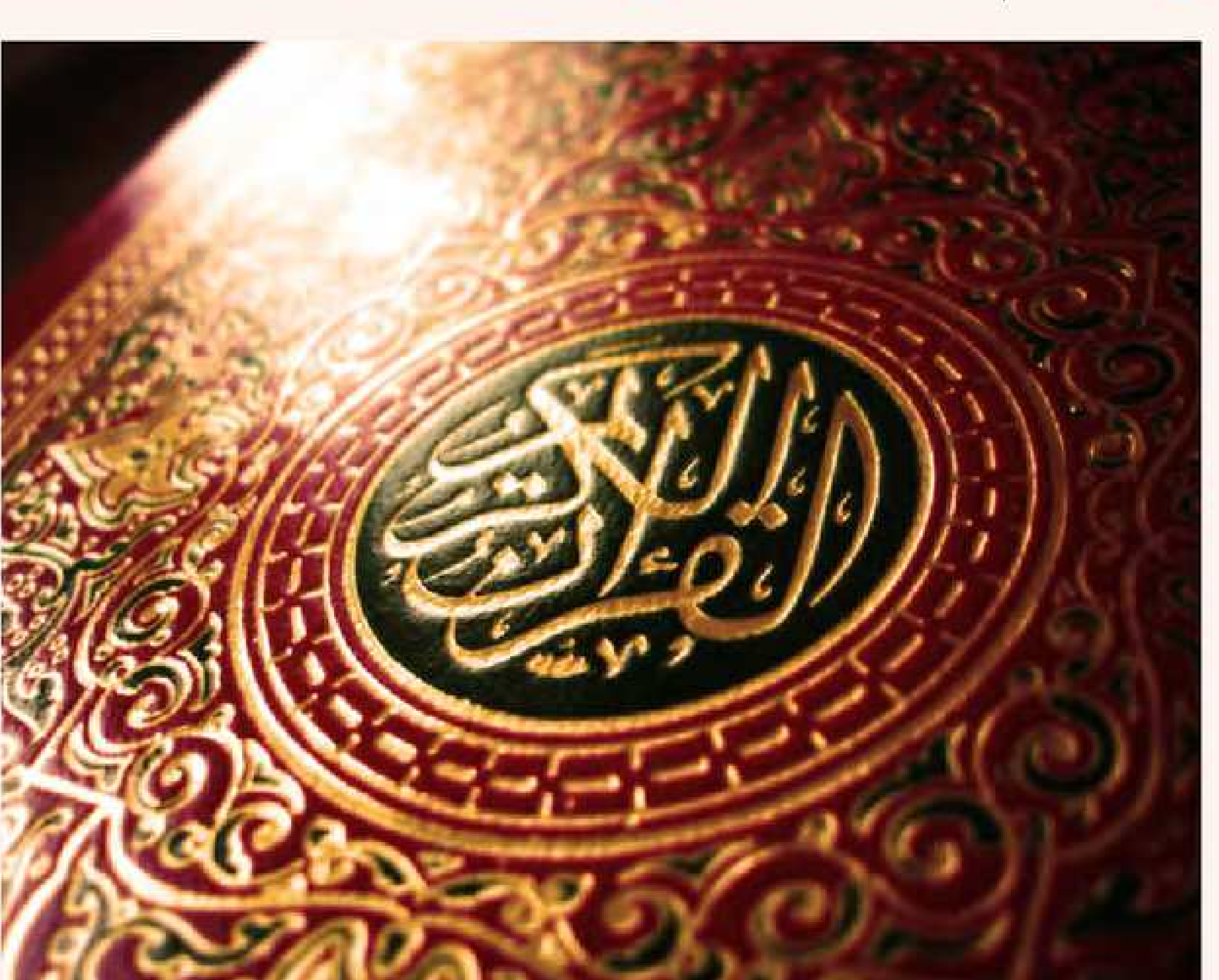
■ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الأفواه جمع الفوه، وتقول هذا فوهه، لكن لما كان اجتماع الهاءين في الإضافة ثقيلاً، قالوا: هذا فوه وفو زيد.

■ ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ الإباء والإباية: أشدُّ الامتناع من الفعل، فهم يريدون ويسعون، والله يأبى ما يريدون، ويبطل ما يمكرون.

■ ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ﴾ أتمَّ أكملَ، «﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أي لا يريد ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ بإعلاء كلمته ونصرة دينه، وإنَّما صحَّ الاستثناء المفرَّغ، - المفرَّغ: النَّاقص الَّذي لم يذكر فيه المستثنى - والفعل موجب لأنَّه في معنى النَّفي.

والتَّقدير ويأبى الله كلَّ شيء إلاَّ أن يتمَّ نوره، فـ «أبى» يضارع النَّفي، أي: لا يريد شيئًا من الأشياء إلاَّ إتمامَ نورِه(2).

والتَّمام: هو حصول جميع ما للشَّيء من كيفيَّة أو كمِّيَّة، فتمام النُّور: حصولُ أقوى شعاعه(3).



(1) رواه الطَّبري (421/11).
(2) انظر «تفسير القرطبي» (121/8) وأبي السُّعود (163/3) و«مغني اللَّبيب» (ص886).
(3) انظر «التَّحرير والتَّنوير» (170/28).

■ ﴿وَلَوۡ﴾ حرف وصل يؤتى به لتقوية المعنى، ووصل الكلام بعضه ببعض، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ [الأنعام: 152].

■ ﴿كَرِهَ﴾ ضدُّ أحبَّ، وجوابُ «لو» محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي لا يريد الله إلاَّ إتمامَ نورِه، ولو كرِهِ الكافرون ذلك.

■ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الكافر لغةً: هو الَّذي يستر الشَّيء ويغطِّيه، ومنه سمِّي اللَّيلُ «كافرًا»؛ لأنَّه يستر الأشياء، والزَّارع كافرًا؛ لأنَّه يغطِّي الحبَّ في الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20][4].

وشرعًا: هو الَّذي يغطِّي ويستر بكفره الإيمان و نعَم الله وعبادته.

و﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هم جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

فوائد الآية

■ إرادة أعداء الله من اليهود والنَّصارى وغيرهم إطفاء نور الله، واجتهادهم في محاربة الإسلام وإيقاف رحمته وعدله.

ولقد حاول اليهود ذلك في عهد النَّبيِّ ﷺ فأخرجهم من المدينة وفرض عليهم الجزية، يعطونها عن يدٍ وهم صاغرون، ثمَّ طردهم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من جزيرة العرب فتفرَّقوا في الأرض شَذَرَ مَذَرَ.

وكذلك فعل النَّصارى في الحروب الصَّليبيَّة المعروفة، ويومَ دخلوا بيت المقدس ذبحوا (70) ألف مسلم في المسجد الأقصى.

(4) «تفسير ابن كثير» (4/136).

والعجيب أنَّ الَّذي كان يحرِّض ملوك أوربا وشعوبَها على قتال المسلمين هم الباباوات.

فهذا البابا كاليكستيوس الثَّالث الَّذي ارتقى كرسيَّ البابويَّة وهو في العقد الثَّامن من عمره، لم يكن له همٌّ إلاَّ تحريض النَّصارى على إبادة المسلمين، ففي سنة 1456م بنى أسطولاً بحريًّا، فيه خمس وعشرون سفينة حربيَّة، ودعا ملوكَ النَّصارى للالتحاق به وشنِّ الغارَّات على بلاد الإسلام[5].

وفرض النَّصارى على مسلمي بلاد الأندلس حين سقوطها تركَ الإسلام، ومنعوهم استخدامَ اللُّغة والأسماء العربيَّة، ولُبسَ اللِّباس العربي الإسلامي، وكلُّ من يخالف يُعذَّب ويمزَّق ويقتَّل ويُحرَّق، وأنشأوا لذلك ما يسمى بـ «تداوين التَّفتيش».

ولا يخفى ما فعله الاستعمار الفرنسي الصَّليبي في هذا البلد الطَّيِّب الجزائر، وكذلك ما يُفعَل اليوم بالمسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان وبورما، وغيرها من البلدان، تقتيل وتدمير، وتخريب وتشريد.

فالكفَّار ـ على اختلاف نحلهم وتباين عقائدهم ـ اتَّفقوا على شيء واحد، وهو محاولة إطفاء نور الله عز وجل.

❁ ولهم في ذلك وسائل متنوِّعة وطرق كثيرة، منها:

□ التَّبديل والتَّحريف والكذب على الله، كقول اليهود: «عزير ابن الله» و قول النصارى «المسيح ابن الله».

□ الصَّدُّ عن سبيل الله و الطَّعن في دينه، قال عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ [النساء: 46].

□ المقاتلة والمحاربة، قال عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: 217].

(5) «حاضر العالم الإسلامي» (3/208ـ217).

□ إعانة المناوئين للإسلام والدُّخول تحت صفوفهم.

□ نشر الأخبار والعقائد الباطلة الموجودة في كتبهم المحرَّفة.

□ نشر البدع و بثُّ أسباب الفرقة بين المسلمين.

قال الأوزاعي رحمه الله: «أوَّل من نطق في القدر ـ أي نفي القدر ـ رجل من أهل العراق يقال له: سَوْسَن، كان نصرانيًّا فأسلم، ثمَّ تنصَّر فأخذ عنه مَعبَدٌ الجهني، وأخذ غَيلان عن مَعبَد»[6].

وقام عبد الله بن سبأ اليهودي يثير الفتنة، ويتحزَّب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وينادي بألوهيَّته وعصمته، فظهرت بسبب فتنته وإلحاده فرقة الشِّيعة.

لقد كان لليهود والنَّصارى أثرٌ بيِّن في ظهور بعض الفرق الضَّالَّة كالباطنيَّة والإسماعيليَّة وكان للاستعمار الصَّليبي دور خطير في نشر الخرافات وبناء القباب وتشييد المشاهد.

□ إشاعة الفواحش ونشر الموبقات، وتشجيعها والمكافأة عليها، مثل السِّحر والكهانة، والرِّبا والزِّنا والغناء، والاختلاط والتَّبرُّج والعري.

□ الاستيلاء على وسائل الإعلام المختلفة، واستغلالها بقوَّة لتحقيق مرادهم وإطفاء نور الله.

■ **محاولتهم** إطفاءَ نور الله دائمة

(6) رواه اللاَّلكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (4/827).

غير متوقِّفة ومستمرَّة غير منقطعة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217]، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33]، «أي يسعون في إبطال الإسلام، وذلك من أعظم الفساد»[7].

فالآية «تُشْعِرُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْكَارِهِينَ لَهُ سَيُحَاوِلُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِطْفَاءَ هَذَا النُّورِ، كَمَا حَاوَلُوا ذَلِكَ فِي عَصْرِ مَنْ أَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ بِوَحْيِهِ إِلَيْهِ وَبَيَانِهِ له»[8]، فلا يفترون ولا ييأسون.

■ سمَّى الله دينه نورًا؛ لأنَّه يستنار به في ظلمات الشِّرك والجهل والباطل والبدع والفواحش، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 123]، فالحقُّ يُشَبَّه بالنُّور، والباطل بالظُّلمة.

و«الْمَعْنَى الْجَامِعُ بَيْنَ النُّورِ الْحِسِّيِّ وَالنُّورِ الْمَعْنَوِيِّ هُوَ أَنَّهُ الشَّيْءُ الظَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ الْمُظْهِرُ لِغَيْرِهِ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ النُّورَ الْمَعْنَوِيَّ لِلْبَصِيرَةِ كَالنُّورِ الْحِسِّيِّ لِلْبَصَرِ»[9].

■ أضاف الله ﷻ النُّور؛ إلى نفسه لأنَّه هو الَّذي أنزله وشرعه وأمر به، فهو إذًا الحقُّ والحكمة، والعدل والرَّحمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

■ الإسلام واضحةٌ أدلَّته قاطعةٌ براهينُه مقنعة حُجَجُه، فهي كضوء الشَّمس ونور القمر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ [النساء].

■ تشبيه المعقول بالمحسوس، فيشبَّه محاولو إبطال دين الله بمريدي إطفاء النُّور، ويشبه الإرجاف والتَّكذيب بالنَّفخ، ومن الرَّشاقة أن آلة النَّفخ وآلة التَّكذيب واحدة وهي الأفواه[10].

■ مثلُ هؤلاء الكافرين كمثل من يريد أن يطفئ شعاعَ الشَّمس أو نور القمر بفيه، وهذا مستحيل، فكذلك من يريد إطفاء نور الله.

■ افتراء الكفَّار وطعنهم في دين الإسلام، لذا قال تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بأقاويلهم الباطلة الخارجة عنها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند إليه، بل هي أشبه شيء بالمهملات[11].

■ استحالة الوصول إلى مرادهم، فسعيهم في ذلك عبث يشبه فعل من يريد إطفاء نور عظيم ـ كنور الشَّمس ـ بفيه، فكما أنَّ هذا مستحيل، فكذلك ذلك مستحيل، فمرادهم باطل، وإتمام الله نورَه إبطال لمرادهم إطفاءَه، فهو «النور الباهر، الَّذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والَّذي أنزله جميعُ نواصي العباد بيده، وقد تكفَّل بحفظه من كلِّ من يريده بسوء»[12].

■ **الحقُّ يعلو ويظهر**، فالله يريد إتمام نوره حالاً ومآلاً، وهم يريدون إطفاءَه، ولا يكون إلاَّ ما يريده الله، قال ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال].

قال الطَّبري (421/11): «﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ يَعْلُو دِينُهُ وَتَظْهَرُ كَلِمَتُه، وَيُتِمُّ الْحَقَّ الَّذي بَعَثَ به رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَلَوْ كَرِهَ إِتْمَامَ الله إِيَّاهُ الْكَافِرُون، يعني جاحديه المكذِّبين به».

■ هناك فرق دقيق بين قوله تعالى في سورة الصَّفِّ: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، وبين قوله في سورة التوبة: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فـ«الأَوَّلُ: يُفِيدُ أَنَّهُ مُتِمُّهُ بِالْفِعْلِ فِي الْحَالِ، وَالثَّانِي: وَعْدٌ بِأَنْ يُتِمَّهُ فِي الِاسْتِقْبَالِ، فَيَجْتَمِعُ مِنْهُمَا إِثْبَاتُ هَذَا الْإِتْمَامِ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، فَهُوَ النُّورُ التَّامُّ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَنْطَفِئُ بِالْقِيلِ وَالْقَالِ، بَلْ يَبْقَى مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِهَذَا الْعَالَمِ بِالزَّوَالِ»[13].

■ الإتمام أبلغ من البقاء، ففيه معنى الزِّيادة والانتشار، والعلو والقهر، ولذا لم يقل: (ويأبى الله إلا أن يُبقي نورَه)، بل قال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[14].

■ أكَّد الله ﷻ هذا الإتمام بكونه لا يريد شيئًا من الأشياء إلاَّ إتمامَ نوره، «ولَمَّا كَانَ هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ الْمُغيبِ عَنْ عِلْمِ الْخَلْقِ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَرْتَابَ فيه النَّاسُ، أَكَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يُؤَكِّدْ به الْخَبَرَ الْأَوَّلَ لِأَنَّ صِدْقَهُ مُشَاهَدٌ لا يَحْتَاجُ إِلَى التَّأْكِيدِ، وَنَاهِيكَ بِقَوْلِه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أَيْ: إِنَّهُ لا يَرْضَى وَلا تَتَعَلَّقُ إِرَادَتُهُ بِشَيْءٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ إِلاَّ شَيْئًا وَاحِدًا، وَهُوَ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ فَلا يَجْعَلُ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يُطْفِئَهُ»[15].

■ يكره الكفَّارُ ظهورَ نور الله، ويحسُدون ويُبغضون المسلمين، قال

(7) قاله القرطبي (241/6).
(8) «تفسير المنار» (388/10).
(9) «تفسير المنار» (334/10).
(10) انظر «التَّحرير والتَّنوير» (72/10).
(11) انظر «روح المعاني» (85/5).
(12) «تفسير السَّعدي» (ص355).
(13) «تفسير المنار» (388/10).
(14) انظر «التَّحرير والتَّنوير» (73/10).
(15) «تفسير المنار» (388/10).

اللّه تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109]، ويَغيظهم ظهورُ الإسلام وقوَّةُ المسلمين واجتماعُهم وتمكُّنُهم، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: 29].

■ الآية بشارة للمؤمنين، فهذا الدِّين سيبلغ تمامَه، ويكمُل انتشارُه، ويظهر على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [سورة الصف]، واللّه متمٌّ نورَه وناصرٌ دينَه ومعزٌّ أولياءَه رُغم أنوف الكافرين وكيد المجرمين، قال رسول اللّه ﷺ: «واللّه لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللّه، أو الذِّئْبَ على غَنَمِه، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رواه البخاري (3612)، وقال: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللّه بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللّه هَذَا الدِّين، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيل، عِزًّا يُعِزُّ اللّه به الإِسْلاَم، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللّه بِهِ الْكُفْرَ» رواه أحمد (16957) وسنده صحيح.

وقد أخبر ﷺ أنَّ المسلمين يفتحون القُسطنطينيَّة مدينة هرقل أوَّلاً، ثمَّ روميَّة[16]، والقسطنطينيَّة فتحها محمَّد الفاتح العثماني رحمه الله: فتحًا أوَّليًّا سنة (853 هـ)، وطهَّرها من النُّفوذ البيزنطي، وكلُّ ذلك تمهيد للفتح الأعظم الَّذي أخبر به الصَّادق المصدوق ﷺ، كما في «صحيح مسلم» (2920).

وأمَّا روميَّة - وهي روما عاصمة إيطاليا -، فيها الفاتيكان مقرُّ البابا، فستفتح بإذن اللّه، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾ [سورة يوسف].

وهذه بشارة عظيمة لأهل الإسلام والتَّوحيد، وتثبيت لقلوبهم، ورفع لهممهم، وإنَّ غدًا لناظره لقريب.

■ إنَّ الباطل سيزْهَق ويذهَبُ جُفاءً، ويُكسَر ويُدمَغ، وذلك بإتمام نور اللّه، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [سورة الإسراء]، وقال: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ [سورة الرعد]، وقال: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [سورة الأنبياء]، «ودلَّ حرف المفاجأة على سرعة محق الحقِّ الباطلَ عند وروده؛ لأنَّ للحقِّ صولةً، فهو سريع المفعول إذا ورد ووضح»[17].

فالواجب على المسلمين - حكَّامًا ومحكومين - الرُّجوع إلى دينهم الحقِّ، والاستمساك به والدَّعوة إليه والجهاد في سبيله، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج].

❁❁❁

(16) رواه أحمد (6645)، وصحَّحه الألباني «الصَّحيحة» (8/1).

(17) «التَّحرير والتَّنوير» (26/17).

صدر حديثا عن دار الفضيلة..





لَـمَّـة الـمَـلَـك ولَـمَّة الشَّيـطـان

■ صالح لكشبور
طالب في مرحلة الدُّكتوراه في علوم الشَّريعة

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال:

«إِنَّ للشَّيْطَانِ لَمَّةً(*) وللمَلَكِ لَمَّةً، فأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بالخَيْرِ وتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ مِنَ الآخَرِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ».

ثمَّ قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 269].

❁❁❁

(*) اللَّمَّةُ ـ مفتوحة اللاَّم مُثَقَّلة الميم ـ: الهمَّة والخَطْرَة تَقَع في القلب، والمراد إلمَام الملك أو الشَّيطان به والقُرْب منه، فَما كان من خَطَرَات الخَيْر فهو من المَلك، وما كان مِن خَطَرَات الشَّرِّ فهو من الشَّيطان انظر: «النهاية في غريب الحديث» (273/4) لابن الأثير، و«إصلاح غلط المحدثين» للخطابي (ص38).

رواه مرفوعًا التِّرمذي في «سننه» (2988)، و البزَّار في مسنده (2027)، وأبو يعلى في «مسنده» (4999)، والنَّسائي في «الكبرى» (10985)، والطَّبري في «تفسيره» (6170)، وابن حبَّان في «صحيحه» (997)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (4187) كلُّهم عن أبي الأحوص عن عطاء بن السَّائب عن مرَّة عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ.

قال التِّرمذي: «لا نعلمه مرفوعًا إلاَّ من حديث أبي الأحوص»، وقال البزَّار: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن عبد الله عن النَّبيِّ ﷺ إلاَّ من هذا الوجه بهذا الإسناد وقد رواه غير أبي الأحوص موقوفًا».

وقد حسَّنه مرفوعًا: التِّرمذي، وابن القطَّان الفاسي في «بيان الوهم والإيهام» (825/5)، واحتجَّ به ابن القيِّم في «زاد المعاد»[1] (49/2)، وصحَّحه العلاَّمة

(1) أورده من رواية صالح بن كيسان عن عبيد الله ابن عبد الله عن ابن مسعود يرفعه، وقد أخرج الحديث بهذا الإسناد الحافظ البيهقي في «شعب الإيمان» (4188)، ورجال إسناده ثقات ـ إن شاء الله ـ إلاَّ أنَّه منقطع، فرواية عبيد الله عن عمِّ أبيه الصَّحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرسلة ـ كما في «الخلاصة» للخزرجي (ص251) ..

أحمد شاكر في «تحقيقه لتفسير الطَّبري» (572/5)، والعلاَّمة الألباني[2].

والعلَّة في تضعيف من ضعَّفه ـ مرفوعًا ـ هو «عطاء بن السَّائب ت136»[3]، وهو ممَّن اختلط بأخرة، وقد استظهر العلاَّمة أحمد شاكر أنَّ الرَّاوي عنه «أبا الأحوص ت179» حدَّث عنه قبل الاختلاط، لأنَّه بلديُّه ـ فهما كوفيَّان ـ وأبو الأحوص: ثقة[4]، والأئمَّة ضعَّفوا روايةَ البصريِّين عن عطاء[5].

ومع ذلك فقد رواه موقوفًا[6] الإمام أحمد في «الزُّهد» (ص196)، وأبو داود في «الزُّهد» (ص164)، والطَّبري في «تفسيره» (573/5 ـ ح6171) بستِّ روايات، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (8532)، وغيرهم.

ولا ريب أنَّ هذا الأثر ـ وإن تُكُلِّمَ في سنده مرفوعًا ـ صحيح الإسناد غاية إلى ابن مسعود[7] رضي الله عنه، وليس هو ممَّا يُعْلَمُ بالرَّأي، ولا يدخله القياس، فلا يعلم إلاَّ بالوحي من المعصوم ﷺ، فالرِّوايات

(2) وكان رحمه الله قد ضعَّفه في «ضعيف الجامع» (4773)، و«المشكاة» ـ التَّحقيق الأوَّل ـ (29/1) لاختلاط عطاء بن السَّائب، ثمَّ إنَّ الشَّيخ رحمه الله صحَّحه تبعًا لأحمد شاكر كما في «النَّصيحة» (ص108)، و«المشكاة» ـ التَّحقيق الثَّاني ـ، و«التَّعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان» (993)، وفي تحقيقه «هداية الرُّواة» (70)، وقد ذكرت هذا لصنيع بعض المحقِّقين ـ كحال محقِّق «شعب الإيمان» للبيهقي ـ من عزو تضعيف الحديث للألباني وهو قد تراجع عن ذلك كما ترى، والله أعلم.

(3) انظر ترجمته وكلام النُّقاد فيه: «الجرح والتَّعديل» لابن أبي حاتم (332/6)، «تهذيب الكمال» (86/20)، «ميزان الاعتدال» (70/3).

(4) انظر ترجمته في: «تهذيب الكمال» (282/12)، «سير أعلام النُّبلاء» (281/8).

(5) المصادر السَّابقة، وانظر تحقيق العلاَّمة أحمد شاكر «لتفسير الطَّبري» (572/5).

(6) وقد صحَّح الوقف أبو زرعة وأبو حاتم الرَّازيان، كما في «العلل» لابن أبي حاتم (638/5).

(7) «النَّصيحة» (ص108).

الموقوفة لفظًا هي مرفوعة حكمًا، لاسيما وهي في تفسير القرآن الأمر الّذي يؤكّد أنّها في حكم الرّفع[8].

وعليه، فاعلم أنّ هذا الكلام جامعٌ لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل، ومن شعور وإرادة[9]، وذلك لأمور:

■ الملَك والشّيطان يتعاقبان على القلب تعاقب اللّيل والنّهار، فمن النّاس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضدّه، ومنهم من يكون زمنه نهارا كلّه، وآخر بضدّه، فيؤثّر هذا التّعاقب أحوالاً تتجدّد في القلب والّتي هي «الخواطر»، فسمّيَت بذلك من حيث إنّها تخطر على القلب بعد أن كان غافلاً عنها، وهي المحرّكات للإرادات، فالنّيّة والعزم والإرادة تكون بعد خطور المَنْويّ بالبال لا محالة، ولذا فمبدأ الأفعال هي الخواطر الّتي تحرّكها الملائكة أو الشّياطين[10].

■ لكلّ عبد قوّة الشّعور والإحساس، وقوّة الإرادة والحركة، وإحداهما أصل الثّانية مستلزمة لها، والثّانية مستلزمة للأولى مكمِّلَةٌ لها، فهو بالأولى يصدّق بالحقّ ويكذّب بالباطل، وبالثّانية يحبُّ النّافع الملائم له، ويبغض الضّارَّ المنافي له، وهي الفطرة الّتي خلق الله عباده عليها[11]، والإنسان - ولا شكَّ - دائم الهمِّ والعمل وبذلك سمّاه النّبيُّ ﷺ فقال: «أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وهَمَّامٌ»[12]، ولا يعمل إلاّ ما يرجو نفعه أو دفع مضرّته، والله خلق العبد على ذلك، لكن قد يتخلف لأمرين:

أ - أن يكون ذلك الرّجاء مبنيًّا على اعتقاد باطل: إمّا في نفس المقصود فلا يكون نافعًا، وإمّا في الوسيلة فلا تكون طريقًا إليه، وهذا جهل[13].

ب - أن يعلم أنّ هذا الشّيء يضرُّه ويفعله، ويعلم أنّه ينفعه ويتركه، وذلك عند معارضة علمه ما في نفسه من طلب لذّة أخرى أو دفع ألم آخر، وهذا مع أنّه جهلٌ فهو كذلك ظلم[14].

وجماع الشّرِّ في الجهل والظُّلم، قال الله عز وجل: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب]، ثمّ ذكر التّوبة لعلمه عز وجل أنّه لابدَّ لكلِّ إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثمّ يتوب الله على من يشاء ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأحزاب] فلا يزال العبد المؤمن دائمًا يتبيَّن له من الحقِّ ما كان جاهلاً به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه[15].

■ الهمَّة والخطْرة المحرِّكة للرَّغبة تنقسم إلى قسمين:

□ ما يدعو إلى الشَّرِّ - أي ما يضرُّ في الحال أو المآل..

□ ما يدعو إلى الخير - أي ما ينفع في الحال والمآل..

و هما خاطران مختلفان متقابلان، ولمَّا كانت سنَّة الله ترتيب المسبَّبات على الأسباب، فسبب خاطر الخير الملك، وسبب خاطر الشَّرِّ الشَّيطان، فإذا تهيَّأ القلب لقبول لَمَّة الملك فهو توفيق، وإذا تهيَّأ لقبول لَمَّة الشَّيطان فهو خذلان، ومن هذا قول الحسن البصري: «إنَّما هما همَّان يجولان في القلب: همٌّ من الله تعالى، وهمٌّ من العدوِّ، فرحم الله عبدًا وقف عند همِّه فما كان من الله أمضاه وما كان من عدوِّه جاهده»[16].

■ وتنقسم كذلك من حيث العلم بها إلى ثلاثة أقسام:

□ ما يُعْلَمُ قطعًا أنَّه داعي شرٍّ.

□ ما يُعْلَمُ قطعًا أنَّه داعي خير لا شكَّ فيه.

□ وإلى ما يتردَّد فيه فلا يدرى أنَّه من لَمَّة الملك أو من لَمَّة الشَّيطان، لأنَّ من أخطر مكائد الشَّيطان الرَّجيم أن يعرض الشَّرَّ في معرض الخير، والضَّلال في معرض الهدى، والبدعة في معرض السُّنَّة، والتَّمييز في ذلك غامض على أكثر الخلق، فالشَّيطان لا يقدر على دعاء الخلق إلى الشَّرِّ الصَّريح فيصوِّره بصورة الخير، فيكون تحت الخير تلبيسات ومخاز، وتلبيساته من هذا النَّوع لا تتناهى، فهلك بسبب ذلك أصناف من الخلق ممَّن يكرهون ظاهر الشَّرِّ ولا يرضون لأنفسهم الخوض في الشَّهوات والشُّبهات[17]، فيليق بالمسلم أن يكون حذرًا من جنود إبليس وأوليائه، ولأجل هذه المكيدة اغترَّ كثير من النَّاس بكثير من أهل الشُّبهات بسبب موافقته للسُّنَّة

(8) انظر تحقيق العلاّمة أحمد شاكر «لتفسير الطّبري» (572/5).

(9) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (32/4).

(10) انظر «إغاثة اللّهفان» (207/1)، «الإحياء» (26/3).

(11) أي معرفة الحقّ والتّصديق به، ومعرفة الباطل والتّكذيب به، ومعرفة النّافع وحبُّه، ومعرفة الضّارِّ وبغضه.

(12) انظر «السّلسلة الصّحيحة» (1040).

(13) ولعلَّه المقصود من قول ابن مسعود رضي الله عنه: «وكم من مريد للخير لا يدركه».

(14) وهذا غير من كذَّب بالحقِّ ولم يرج الخير! فكيف بمن كذَّب بالحقِّ و كره إرادة الخير؟ فكيف إذا صدَّق بالباطل وأراد الشَّرَّ؟ وهذا كحال الزَّنادقة من الباطنيَّة والنُّصيريَّة والمنافقين الَّذين يريدون الشَّرَّ بالإسلام والمسلمين بإحداث الفتن فيهم، ثمَّ هم أذن لأيِّ ناعق بالباطل متفوِّه بكلِّ فاسد عاطل، فإذا نطق العلماء بالحقِّ كذَّبوا به ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39].

(15) «مجموع الفتاوى» (32/4)، (348/3).

(16) «الإحياء» (27/3).

(17) «الإحياء» (29/3).

في بعض الأمور فينافح عنه ويدافع، وما علم الرَّجل أنَّه لابدَّ في كلِّ بدعة - عليها طائفة كبيرة - من الحقِّ الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ ويوافق عليه أهل السُّنَّة والحديث ما يوجب قبولها، وليعلم المرء أنَّ الباطل المحض لا يقبل بحال[18]، فهذا الأمر المهمُّ قد علمه وعمله إبليس فلا يخفى عليك، وقد قيل: «ومن لم يعرف الشَّرَّ من الخير يقع فيه».

■ لا يخلو قلب عن هوى، وتكليف المرء أن لا يكون له هوى خارج عن الوسع، ولذا فلا جرم لم يخلُ قلبٌ عن أن يكون للشَّيطان فيه جولان بالوسوسة، ولا يُتَصَوَّرُ أن ينفكَّ عنه آدمي، وإنَّما يختلفون بعصيانه ومتابعته، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَلَهُ شَيْطَانٌ»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأَنَا إلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُ إلاَّ بِخَيْرٍ»[19]، ولمَّا كان الشَّيء لا يعالج إلاَّ بضدِّه فلا يمحو وسوسة الشَّيطان من القلب إلاَّ ذكر ما سوى ما يوسوس به، وكلُّ شيء سوى الله وما يتعلَّق به فيجوز أن يكون مجالاً للشَّيطان، وذكر الله هو الَّذي يؤمن جانبه[20].

■ إنَّما يترجَّح أحد الجانبين باتِّباع الهوى والإكباب على الشَّهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها، ذلك لأنَّ المرء إذا اتَّبع مقتضى هواه ظهر تسلُّط الشَّيطان وصار القلب عشَّه ومعدنه؛ لأنَّ الهوى هو مرعى الشَّيطان ومرتعه، وإن جاهد الشَّهوات ولم يسلِّطْهَا على نفسه صار قلبه مستقرَّ الملائكة ومهبطهم، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦﴾ [سورة الزخرف] ، وقد قال أبو سليمان الدَّاراني ت205 هـ: «أفضل الأعمال خلاف هوى النَّفس».

ولا تغفل أنَّ التَّطارد بين جندي الملائكة والشَّياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثَّاني اختلاسًا، فإذا استمكنت الشَّياطين فلا يمكن فتحها إلاَّ بتخلية القلب عن قوت الشَّياطين وهو الهوى وعمارته بذكر الله عز وجل[21].

■ مبدأ العلم الحقِّ والإرادة الصَّالحة: من لَمَّة الملك، ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة: من لَمَّة الشَّيطان، والشَّيطان وسواس خنَّاس، إذا ذكر العبد ربَّه خنس، وإذا غفل عن ذكر الله وسوس، فلهذا كان ترك ذكر الله سببًا ومبدأً لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب[22]، والأوَّل هو فتنة الشُّبهة والثَّاني فتنة الشَّهوة، ولا يبالي الشَّيطان بأيِّهما أضلَّك - وإن كانت الشُّبهة أحبَّ إليه - وأنت على الاستقامة، ولذا فالنَّجاة تقوى الله والإكثار من ذكره، فتستوطن الملائكة قلبك فتلهمك الخير والفضل، والله الموفق.

■ ذَكَر الله سبحانه وعد الشَّيطان وأمره: فهو يأمرهم بالشَّرِّ ويخوِّفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشَّيطان من الإنسان، فإنَّه إذا خوَّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيَّنها له ارتكبها، وسمَّى سبحانه تخويفه وعدًا لانتظار الَّذي خوَّفه إيَّاه كما ينتظر الموعود ما وُعد به، ثمَّ ذكر سبحانه وعده على طاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة وقاية من الشَّرِّ، والفضل: إعطاء الخير[23].

■ في الحديث إشارةٌ إلى خطر المعصية والتَّحذير منها؛ ذلك لأنَّها تباعد عن العبد وليَّه وأنصح الخلق له، وأنفعهم له ومَن سعادته في قربه منه وهو: الملك الموكَّل به، وتدني منه عدوَّه وأغشَّ الخلق له، وأعظمهم ضررًا له وهو: الشَّيطان، فإنَّ العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، وقد قال بعض السَّلف: «إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشَّيطان فإنْ ذَكَرَ اللهَ وكبَّره وحَمِدَه وهلَّله طَرَدَ الملكُ الشَّيطانَ وتولاَّه، وإن افْتَتَح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاَّه الشَّيطان»، ولا يزال المَلَكُ يَقْرُبُ من العبد حتَّى يصير الحُكْمُ والطَّاعة والغلبة له فتتولاَّه الملائكةُ في حياته، وعند موته، وعند مبعثه قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ [فصلت : 31]، وإذا تولاَّه الملك ثبَّته، وعلَّمه وقوَّى جنَانَه، وأيَّده، قال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال : 12]، ويثبِّته بالقول الثَّابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدُّنيا وعند الموت وفي القبر عند المسألة، فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، فيحارب عنه عدوَّه، ويدافع عنه، ويعينه عليه، وإذا اشتدَّ قرب الملك من العبد تكلَّم على لسانه، وألقى على لسانه القول

(18) «مجموع الفتاوى» (51/4).
(19) مسلم (2814).
(20) «الإحياء» (29/3).
(21) المصدر السَّابق (28/3).
(22) «مجموع الفتاوى» (34/4).
(23) «إغاثة اللَّهفان» (205/1).

السَّديد، وإذا بعُد منه وقرب الشَّيطان منه تكلَّم على لسانه قول الزُّور والفحش، حتَّى يرى الرَّجل يتكلَّم على لسان الملك والرَّجل يتكلَّم على لسان الشَّيطان، وكان أحدهم يسمع الكلمة الصَّالحة من الرَّجل الصَّالح فيقول: ما ألقاها على لسانك إلاَّ الملك، ويسمع ضدَّها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلاَّ الشَّيطان، فإذا أذنب العبد الموحِّد المتَّبع سبيل رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله، فلا يليق به أن ينسى جواره، ويبالغ في أذاه، فإنَّه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضَّيف من الآدميِّين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته، فما الظَّنُّ بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران، قال بعض الصَّحابة رضي الله عنه: «إنَّ معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم»، وقد نبَّه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الانفطار]، أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام، وأكرموهم، وأجلُّوهم أن يرَوْا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدم، وإذا كان ابن آدم يتأذَّى ممَّن يفجر، ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظَّنُّ بأذى الملائكة الكرام الكاتبين، والله المستعان[24].

■ من ابتلي بلمَّة الشَّيطان ووسوسته وتزيينه فلا سبيل له إلاَّ الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم، فهو عدوٌّ لا يقدر عليه الإنسان مهما أوتي من قوَّة وجلد، ليس كعدوٍّ بني آدم، ولذا قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة الأعراف].

وقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة المؤمنون]

وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف]، فهذه ثلاث آيات ليس لهنَّ رابعة في معناها، وهو أنَّ الله يأمر بمصانعة العدوِّ الإنسي والإحسان إليه، ليردَّه عنه طبعُهُ الطَّيب الأصل إلى الموادَّة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدوِّ الشَّيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعةً، ولا إحسانًا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدَّة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، وقد أقسم للوالد إنَّه لمن النَّاصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة ص][25].

■ إنَّ لمَّة الملك نعمة ورحمة من الله، وهي واعظ الله عزَّ وجلَّ في قلوب عباده المؤمنين، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى ضَرَبَ مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى كَنَفَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ لَهُمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ، فَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ: الإِسْلاَمُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، فَلاَ يَقَعُ أَحَدٌ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ حَتَّى يَكْشِفَ السِّتْرَ، وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»[26] فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة[27].

هذا وفي الحديث لطائف أخر، وليعلم المسلم أنَّ صلاح السِّرِّ وسلامة القلب من همزات الشَّياطين أمرٌ اهتمَّ له السَّلف أيَّما اهتمام، ذلك لأنَّه لا سبيل لنجاة المرء يوم القيامة إلاَّ به، قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء].

وما أحسن ما قاله أبو عون رحمه الله: «كان أهل الخير إذا التقوا يوصي بعضهم بعضًا بثلاث، وإذا غابوا كتب بعضهم إلى بعض: منْ عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح فيما بينه وبين الله كفاه الله النَّاس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[28].

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه، وسبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك و أتوب إليك.

■■■

(24) نقلته مختصرًا من كتاب «الجواب الكافي» (ص114) فما بعدها.

(25) «تفسير ابن كثير» (25/1).

(26) رواه أحمد (17634)، وصحَّحه العلاَّمة الألباني في «صحيح التَّرغيب» (2348).

(27) «مدارج السَّالكين» (51/1).

(28) «مصنَّف ابن أبي شيبة» (36135).

أهمِّيَّة معرفة أسماء الله تعالى وصفاته

د/ عادل مقراني
أستاذ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة قسنطينة

إنَّ أنفعَ العلوم وأجلَّها على الإطلاق علمُ التَّوحيد؛ لأنَّه يُرشد العبد إلى معرفة الله وما يستحقُّه من الصِّفات العلى والأسماء الحسنى، وهذا يستلزم إجلالَه وتعظيمه والافتقار إليه وحده سبحانه، فيبعث فيه الحرصَ على معرفة ما يحبُّه ربُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظَّاهرة والباطنة حتَّى يؤدِّيَها، ومعرفة ما يكرهه ويغضبه حتَّى يجتنبه ويبتعد عنه، فيسلم في علمه وعمله اللَّذَيْن من رُزِقَهُمَا فقد فاز وغنم، ومن حرمهما فالخير كلَّه حُرِمَ.

فعِلْمُ العبد بربِّه وبأسمائه وصفاته وأحكامه هو مفتاح الفضل والزِّيادة، ومن وُفِّق إلى ذلك فقد حاز القدح المُعَلَّى، ونال سعادة الدَّارين؛ لأنَّ ثمرةَ العلم بهما لا تعدلها ثمرة، وحسرة الجهل بهما لا تساويها حسرةٌ.

والنَّاظر إلى فضل هذا العلم ومكانته تزداد همَّته في طلبه، ورغبته في معرفته؛ لأنَّ العلم بأسماء الله تعالى وصفاته هو:

أوَّلاً: أحد أقسام التَّوحيد عند أهل السُّنَّة والجماعة.

فإذا كان التَّوحيد عند أهل السُّنَّة والجماعة هو: إفراد الله بما يختصُّ به، فإنَّ ممَّا اختصَّ به سبحانه أسماءَه وصفاته الَّتي ينبغي أن يُوَحَّدَ فيها وبها ـ جلَّ جلاله ـ؛ لأنَّها أحد أقسام التَّوحيد الَّذي دارت عليه أديان الرُّسل، ونزلت به الكتب كما قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «وأمَّا التَّوحيد الَّذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه، فوراء ذلك كلِّه، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد...» إلى أن قال: «... بل كلُّ سورة في القرآن فهي متضمِّنة لنوعيِ التَّوحيد، بل نقول قولاً كليًّا: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنة للتَّوحيد شاهدةٌ به داعيةٌ إليه؛ فإنَّ القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التَّوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كلِّ ما يعبد من دونه، فهو التَّوحيد الإرادي الطلبي...»[1].

والنَّاظر إلى ما تضمَّنه القرآن الكريم يجد أنَّ من أعظم ما بُيِّن أوضح البيان، وفُصِّلَ أتمَّ التَّفصيل توحيدَ الأسماء والصِّفات.

■■■

ثانيًا: أحد أركان الإيمان بالله تعالى.

من المعلوم من دين الله تعالى أنَّ أركانَ الإيمان ستَّة كما صحَّ في حديث جبريل عليه السلام، ومن المتقرِّر ـ أيضًا ـ أنَّ لكلِّ ركن منها مُتَضَمَّنات، والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته من متضمَّنات الإيمان بالله، قال الشَّيخ ابن باز رحمه الله: «ومن الإيمان بالله ـ أيضًا ـ: الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا الواردة في كتابه العزيز، والثَّابتة عن رسوله الأمين، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يجب أن تُمَرَّ كما جاءت به بلا كيف، مع الإيمان بما دلَّت عليه من المعاني العظيمة الَّتي هي أوصاف الله عز وجل، يجب وصفه بها على الوجه اللاَّئق به من غير أن يشابه خلقه في شيء من صفاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(1) «مدارج السَّالكين» (3/449 ـ 450).



تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سُورَةُ النَّحۡلِ][2].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «فإن الإيمان بأسماء الله وصفاته أحد أركان الإيمان بالله تعالى وهي: الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بربوبيَّته، والإيمان بألوهيَّته، والإيمان بأسمائه وصفاته»[3].

■■■

❁ ثالثًا: العلم بها أشرف العلوم وأفضلها وأهمها.

تتفاضل المعارف والعلوم بحسب الغاية من تحصيلها، والمقصد من طلبها، ولمَّا كانت غاية ومقصد الخَلق هي توحيد الله سبحانه وتعالى كان العلم بأسماء الله تعالى وصفاته من أعظم العلوم والمعارف الَّتي من حصَّلها فقد فُتح له باب خير عظيم، كما قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «ولا ريب أنَّ العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أنَّ العلمَ به أجلُّ العلوم وأشرفها فهو أصلها كلِّها كما أنَّ كلَّ موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحقِّ المبين، ومفتقرٌ إليه في تحقُّق ذاته وأينيَّته، وكلُّ علم فهو تابع للعلم به مفتقرٌ في تحقق ذاته إليه، فالعلم به أصل كلِّ علم»[4]، وقال ـ أيضًا ـ رحمه الله: «فإنَّ العلمَ بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]... وقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: 19] فالعلم بوحدانيَّته تعالى وأنَّه لا إله إلاَّ هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يُكْتَفَى به وحده؛ بل لا بدَّ معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما؛ أن يُعْرَفَ الرَّبُّ تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعْبَد بموجَبها ومقتضاها، فكما أنَّ عبادته مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته، وأيضًا فإنَّ العلم من أفضل أنواع العبادات»[5]، وقال ابن العربي رحمه الله: «شرف العلم بشرف المعلوم، والباري أشرف المعلومات، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم»[6].

■■■

❁ رابعًا: أصل كلِّ علم ومنشؤه وأصل سعادة العبد في الدَّارين.

كما قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «فالعلم به أصل كلِّ علم، كما أنَّه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه وموجده، ولا ريب أنَّ كمالَ العلم بالسَّبب التَّامِّ، وكونه سببًا يستلزم العلم بمسبَّبه، كما أنَّ العلمَ بالعلَّة التَّامَّة ومعرفة كونها علَّةً يستلزم العلمَ بمعلوله، وكلُّ موجود سوى الله فهو مستندٌ في وجوده إليه استنادَ المصنوعُ إلى صانعه والمفعول إلى فاعله؛ فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه، فهو في ذاته ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، والعلم به أصل كلِّ علم ومنشؤه، فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربَّه فهو لما سواه أجهل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سُورَةُ الحَشۡرِ]... والمقصود أنَّ العلمَ بالله أصل كلِّ علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته،

(2) «العقيدة الصَّحيحة وما يضادُّها» (ص4).

(3) «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» (ص5).

(4) «مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (86/1).

(5) المصدر نفسه (178/1).

(6) «أحكام القرآن» (804/2).

والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته»[7].

■■■

۞ خامسًا: أساس العلم الصَّحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا العلم فيراد به في الأصل نوعان: أحدهما العلم به نفسه وبما هو متَّصف به من نعوت الجلال والإكرام وما دلَّت عليه أسماؤه الحسنى، وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خَشْيَةَ الله لا محالة؛ فإنَّه لا بدَّ أن يعلم أنَّ الله يثيب على طاعته ويعاقب على معصيته كما شهد به القرآن والعيان، وهذا معنى قول أبي حيَّان التَّيمي أحد أتباع التَّابعين: «العلماء ثلاثةٌ: عالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله وبأمر الله»، فالعالم بالله الَّذي يخشى الله، والعالم بأمر الله الَّذي يعرف الحلال والحرام»[8].

فالعلم بالله تعالى يقود العبدَ إلى كلِّ علم صحيح؛ لأنَّ من عرف ربَّه حقًّا سعى في تحصيلِ مرضاته، وحَرَص على القيام بمحابِّه، والقائد له في هذا هو الخشية.

■■■

۞ سادسًا: طريق عبادة الله ومحبته سبحانه.

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وكلُّ من عرف الله أحبَّه، وأخلص العبادة له ولا بدَّ، ولم يُؤْثِرْ عليه شيئًا من المحبوبات»[9]، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ مَنْ عَرَفَ الله أحبَّه ولا بدَّ، ومَنْ أحبَّه انْقَشَعَتْ عنه

(7) «مفتاح دار السَّعادة» (86/1).
(8) «مجموع الفتاوى» (33/3).
(9) «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان» (68/1).

سحائبُ الظُّلمات وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسُّرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التَّهاني والبشائر منْ كلِّ جانب؛ فإنَّه لا حزنَ مع الله أبدًا»[10]، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «إذا طلعت شمس التَّوحيد وباشرت جوانبُها الأرواحَ، ونورُها البصائرَ، تجلَّت بها ظلمات النَّفس والطَّبع، وتحرَّكت بها الأرواح في طلب مَنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: 11]، فسافر القلب في بَيْدَاء الأمر، ونزل منازل العبوديَّة منزلاً منزلاً، فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيمٌ على معبود واحد، فلا تزال شواهد الصِّفات قائمةً بقلبه توقظُه إذا رقد وتُذَكِّرُهُ إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد»[11].

وقال الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «فمنزلته في الدِّين عاليةٌ، وأهمِّيَّته عظيمةٌ، ولا يمكن أحدًا أن يعبدَ الله على الوجه الأكمل حتَّى يكون على علم بأسماء الله وصفاته؛ ليعبده على بصيرة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] وهذا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة»[12].

■■■

۞ سابعًا: السَّبب الأعظم لخشيته سبحانه.

لأنَّ الفقهَ بأسماء الله وصفاته يوجدُ في قلوب العابدين العارفين به تعظيمَه وتقديسَه ومحبَّته، وإحساسًا بافتقارها بالكلِّيَّة إلى الله تعالى، فتنكسر القلوب له، وتسكن النُّفوس لعظمته وكبريائه، وتُصدِّق خبره وتَتَّعظ من قصصه،

(10) «طريق الهجرتين وباب السَّعادتين» (ص420).
(11) «مدارج السَّالكين» (245/3).
(12) «القواعد المثلى» (ص 6).

وتمتثل الجوارح لأمره، وتجتنب نهيَه، فيرزَق العبد الخشية من الله تعالى، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ عَرَفَ الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية»[13]، وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28] أيْ: إنَّما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلَّما كانت المعرفة به أتمَّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[14].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «فأصل العلم بالله الَّذي يوجب خشيَتَه ومحبَّته والقربَ منه والأنسَ به والشَّوق إليه، ثمَّ يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبُّه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد.

فمن تحقَّق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا وحصل له العلم النَّافع والقلب الخاشع والنَّفس القانعة والدُّعاء المسموع»[15].

■■■

۞ ثامنًا: أفضل عطايا الله لأهل طاعته.

قال الشَّيخ السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه المعارف الَّتي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتَعَبُّده بها لله لا يُحَصِّلُ العبدُ في الدُّنيا أجلَّ ولا أفضلَ ولا أكملَ منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التَّوحيد وروحه، ومن انْفَتَحَ له هذا البابُ انفتح له باب التَّوحيد الخالص، والإيمان الكامل

(13) «التِّبيان في أقسام القرآن» ص83.
(14) «تفسير ابن كثير» (544/5).
(15) «فضل علم السَّلف» (ص69).

الَّذي لا يحصل إلاَّ للكُمَّل من الموحِّدين، وإثبات الأسماء والصِّفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى»[16].

فحسنة التَّوحيد الَّتي تحصل من معرفة العبد ربَّه تفضل غيرها من الحسنات، وتحرق ما دونها من السَّيِّئات؛ لأنَّها أخصُّ مطلوب لمن أراد تحقيق التَّوحيد وتخليصَه من شوائب الشِّرك والبدع والمعاصي؛ ليكون العبد واحدًا من السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب.

■■■

تاسعًا: ورود الأمر بتعلمه والعناية به.

قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البَقَرَة] وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المَائدة :34]، وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ [البَقَرَة] وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البَقَرَة]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفَال : 25]، وقوله: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البَقَرَة]، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [مُحَمَّد : 19]، قال الشيخ السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا العلم الَّذي أمر الله به ـ وهو العلم بتوحيد الله ـ فرضُ عين على كلِّ إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطرٌّ إلى ذلك، والطَّريق إلى العلم بأنَّه لا إله إلاَّ هو أمور: أحدها، بل أعظمها: تدبُّر أسمائه وصفاته وأفعاله الدَّالَّة على كماله وعظمته وجلالته؛ فإنَّها تُوجبُ بَذْلَ الجُهْد في التَّألُّه له، والتَّعبُّد للرَّبِّ الكامل الَّذي له كلُّ حمد ومجد وجلال وجمال...»[17]، وقال الإمام اللاَّلكائي رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ أوجبَ ما على المرء معرفةُ اعتقاد الدِّين، وما كَلَّفَ الله به عباده من فهم توحيده وصفاته، وتصديق رسله بالدَّلائل واليقين، والتَّوصُّل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين»[18].

■■■

عاشرًا: كثرة ذكر الله تعالى لأسمائه وصفاته في القرآن.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة والآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدرًا من آيات المعاد، فأعظم آية في القرآن آيةُ الكرسي المتضمِّنة لذلك، كما ثبت ذلك في الحديث الصَّحيح الَّذي رواه مسلم عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لأُبَيِّ ابن كعب: «أَتَدْرِي أَيُّ آيَة في كتَاب الله أَعْظَمُ؟» قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة : 255] فضرب بيده في صدره وقال: «لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبا المُنْذر»، وأفضل سورة سورةُ أمِّ القرآن كما ثبت ذلك في حديث أبي سعيد بن المعلَّى في «الصَّحيح» قال له النَّبيُّ ﷺ: «إنَّه لَمْ يَنْزِلْ في التَّوْرَاة ولا في الإنْجيل ولا في الزَّبُور ولا في القُرْآن مثْلُهَا، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَاني والقُرْآنُ العَظيمُ الَّذي أُوتيتُهُ» وفيها من ذكر أسماء الله وصفاته أعظمُ ممَّا فيها من ذكر المعاد، وقد ثبت في «الصَّحيح» عنه ﷺ من غير وجه أنَّ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص] «تَعْدلُ ثُلُثَ القُرْآن»، وثبت في «الصَّحيح» أنَّه بشَّر الَّذي كان يقرؤها ويقول: «إنِّي لأحبُّها؛ لأنَّها صفةُ الرَّحمن»: «بأَنَّ الله يُحبُّهُ»، فبيَّن أنَّ الله يحبُّ من يحبُّ ذكرَ صفاته سبحانه وتعالى وهذا باب واسع»[19].

فاحرص أخي ـ رعاك الله ـ أنْ يَكُون لك حظٌّ وافر من هذا العلم الَّذي يُعزُّ الله به الخلقَ ويَرفع به الدَّرجات، ويُوفِّقُ به إلى صراطه المستقيم، ويُثبِّت به العبدُ على منهج الحقِّ، ويُنَجَّى به من الهلكة والخذلان، ولا تَكُنْ كحال من قال فيه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فوا أسفاه! وواحسرتاه! كيف ينقضي الزَّمان وينفد العمر والقلب محجوبٌ ما شمَّ لهذا رائحةً، وخرج من الدُّنيا كما دخل إليها، وما ذاق أَطْيَبَ ما فيها؛ بل عاش فيها عَيْش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس فكانت حياته عجزًا وموته كمدًا ومعاده حسرةً وأسفًا»[20]، والله تعالى أعلم، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه، والحمد لله ربِّ العالمين.

❁❁❁

(16) «القول السَّديد شرح كتاب التَّوحيد» ـ ضمن المجموعة الكاملة ـ (10/46).

(17) «تيسر الكريم الرَّحمن» (ص787).

(18) «شرح أصول أهل السُّنَّة» (1/9).

(19) «درء تعارض العقل» (5/310).

(20) «طريق الهجرتين وباب السَّعادتين» (ص327).



تحجير الأرض

ضوابطه وأحكامه

■ فؤاد عطاء الله
مرحلة الدكتوراه في العلوم الشَّريعة ـ وادي سوف

إنَّ من مظاهر الحرص المذموم على حرث الدُّنيا ما نشاهده اليوم في جهات كثيرة من سَطو على الأراضي الخاصَّة والعامَّة، تحت غطاء التَّحجير تارةً، وبذريعة الإحياء تارةً أخرى، دون مراعاة للأحكام الشَّرعيَّة، ولا مسايرة للحقائق العرفيَّة، ولا التزام بالمحسِّنات الأخلاقيَّة، فصار المسلم ـ والحال هذه ـ بين أن يَظلم أو يُظلَم، أو يَزِلَّ أو يُزَلَّ، أو يَجهَل أو يُجهَل عليه.

ومن أجل بيان الأحكام الشَّرعيَّة المتعلِّقة بهذه القضيَّة أعددت هذا المقال الَّذي يتناول بالبَحث مسألة تحجير الأرض، يبيِّن حقيقتَه، ويحدِّد كيفيَّته، ويجلِّي حُكمَه، ويعدِّد آثاره، ويوضِّح ضوابطه، بالاعتماد على نصوص الكتاب والسُّنَّة، وأقوال علماء الأمَّة، وبالله وحده التَّوفيق.



المبحث الأوَّل
تعريف التَّحجير

لغةً: التَّحجير هو المنع، يقال: حَجَّرْتَ الأرضَ واحتَجَرتَها، إذا ضَرَبتَ عليها منارًا تمنعُها من غيرك[1].

اصطلاحًا: تحجيرُ الأرض في الاصطلاح لا يخرج عن معناه اللُّغوي، وهو شُروعٌ في إحياء الأرض المَوَات، وهي الأرض الخالية من العِمَارة والسُّكان، بِضَرب حدود ومنارات حول ما يريد إحياءه[2]، قال عبد الله بن المبارك: «التَّحجير أن يضرب على الأرض الأعلام والمنار، فهذا الَّذي قيل فيه: إن عطَّلها ثلاث سنين فهي لمن أحياها بعده»[3].

المبحث الثَّاني
كيفيَّة التَّحجير

يحصل تحجير الأرض بإحاطة جوانبها على نحوٍ يُفهم منه أن أحداً وضع يده على تلك الأرض من أجل الشُّروع في إحيائها، كإحاطة الأرض بترابٍ أو حجرٍ أو علامة، أو بحصاد ما فيها من الحشيش والشَّوك، أو بإحراقه، أو بوضع حائطٍ صغيرٍ حولها[4].

المبحث الثَّالث
الفرق بين تحجير الموات وإحياء الموات

تحجير الأرض الموات شروع في إحيائها، بتعيين حدودها ومناراتها، وهو سبب من أسباب الاختصاص بالمنافع[5]، وأمَّا الإحياء فهو سبب من أسباب التَّمليك، وحقيقتُه:

عمارة الأرض الخَربَة المُتَبَوَّرة الميِّتة البعيدة عن العمران، الَّتي لم يَجْرِ عليها ملكٌ لأحد، ولم يوجد فيها أثر عِمارة، ويتحقَّق إحياؤها بالزِّراعة أو البناء أو نحوهما[6]، قال الإمام مالك: «وإحياؤها ـ الأرض ـ شقُّ العيون، وحفر الآبار، وغرس الشَّجر، وبناء البنيان، والحرث،

(1) «لسان العرب» لابن منظور، مادَّة: حجر (165/4).
(2) «المبسوط» للسَّرخسي (296/23)، «تبيين الحقائق» للزَّيلعي (460/16)، «شرح حدود ابن عرفة» للرَّصَّاع (ص537)، «تكملة المجموع» للمطيعي (220/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(3) «الخراج» ليحيى بن آدم القرشي (ص122).
(4) «تبيين الحقائق» للزَّيلعي (460/16)، «شرح حدود ابن عرفة» للرَّصَّاع (ص537)، «تكملة المجموع» للمطيعي (212/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(5) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» للعزِّ بن عبد السَّلام (73/2).
(6) «الاختيار لتعليل المختار» للموصلي (76/3)، «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (285/22)، «تكملة المجموع» للمطيعي (208/15)، «المغني» لابن قدامة (164/6).



إذا فعل شيئًا من ذلك فقد أحياها»[7].

ويُرجعُ في تحديد ما يتحقَّق به الإحياء إلى العرف، فما عدَّه النَّاس إحياءً في العادة فهو كذلك، قال الإمام الشَّافعي: «إنَّما يكون الإحياء ما عرفه النَّاس إحياءً لمثل المُحْيَا»[8]، واستحسن هذا بعض فقهاء المالكيَّة[9].

ولا يحصل الإحياء بمجرَّد تحجير الأرض، ولا عبرةَ بالتَّحجير إلاَّ إذا أضيف إليه العمل الَّذي يُصَيِّرُ الأرضَ مُثمرةً مُنتجةً، أو يصيِّرها صالحةً للسَّكن، قال يحيى بن آدم القرشي (203 هـ) في كتابه «الخراج» ما نصُّه: «وإحياء الأرض أن يستخرج فيها عينًا أو قَليبًا ـ بئرًا ـ، أو يسوق إليها الماء، وهي أرضٌ لم تُزرع، ولم تكن في يد أحد قبله، يزرعها أو يستخرجها حتَّى تصلح للزَّرع... والتَّحجير فهو غير إحياء الأرض»[10].

وقال السَّرخسي من الحنفيَّة: «فالتَّحجير لا يكون إحياءً، إنَّما الإحياء أن يجعلها صالحةً للزِّراعة»[11]، وقال أبو الوليد الباجي من المالكيَّة: «قال ابن القاسم: وليس التَّحجيرُ إحياءً، ووجه ذلك أنَّ التَّحْجيرَ ليس فيه إحياء للأرض ولا مَنْفَعَةٌ، وإنَّما هو منع لغيره من التَّصَرُّف فيها، وإلاَّ فهِيَ بَاقِيَةٌ على صفتها قَبْلَ التَّحْجير»[12].

هذا، وقد اختلف الفقهاء في تصنيف بعض صور الاستصلاح، أهي إحياء أم تحجير؟ وذلك راجع إلى اختلاف الأعراف من بلد إلى آخر، ومن أرض إلى أخرى، من ذلك:

الصُّورة الأولى: الرَّعي ليس إحياءً.

ذهب عامَّة المالكيَّة خلافًا لأشهب وابن حزم الظَّاهري إلى أنَّ الرَّعي ليس إحياءً، فلو نزل قوم أرضًا من أرض البرِّيَّة فجعلوا يرعَوْنَ ما حولها لا يكون فعلهم هذا إحياءً لها، وعدَّه أشهب إحياءً، ولم يعجب قولُه هذا سحنونًا[13]، ولم ير الإمام مالك الرَّعيَ إحياءً[14].

الصُّورة الثَّانية: حفر البئر لسقي الماشية ليس إحياءً.

قال ابن القاسم وأشهب ـ رحمهما الله ـ: «حفر بئر من أجل سقي الماشية ليس إحياءً»[15].

الصُّورة الثَّالثة: حفر البئر الَّذي لا يصل إلى الماء ليس إحياءً.

اتَّفق الفقهاء على أنَّ حفر البئر إذا لم يصل إلى الماء يعدُّ تحجيرًا للأرض، لا إحياءً لها[16].

الصُّورة الرَّابعة: وذكر القرافي رحمه الله أنَّ من أحيا أرضًا للسُّكنى، ولم يسقِّف الدَّار، ولم يقسم البيوت فليس بإحياء[17].

المبحث الرَّابع

حكم تحجير الأرض

نقل ابن حزم رحمه الله اتِّفاق الفقهاء على جواز تحجير الأرض لمن قصد إحياءَها[18]، ويمكن الاستدلال على مشروعيَّته بما يأتي:

الدَّليل الأوَّل: أنَّ النَّاس كانوا يتحجَّرون الأرضَ في زمن عمر رضي الله عنه وهو من الخلفاء الرَّاشدين الَّذين أُمِرْنا بالتَّمسُّك بسنَّتهم، ولم ينكر ذلك عليهم، إلاَّ أنَّه ألزم المتحجِّر بإحيائها في مدَّة أقصاها ثلاث سنوات، وإلاَّ سقط اختصاصه بإحيائها.

فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ عمر ابن الخطَّاب رضي الله عنه قال وهو على المنبر: «من أحيا أرضًا ميِّتةً فهي له، وليس لمحتجِرٍ حقٌّ بعد ثلاث سنين»، وذلك أنَّ رجالاً كانوا يحتجِرون من الأرض ما لا يعملون[19].

الدَّليل الثَّاني: أنَّ التَّحجير شروعٌ في إحياء الموات، والإحياء جائزٌ باتِّفاق الفقهاء، وذهب الشَّافعيَّة إلى أنَّه مستحبٌّ[20]، يدلُّ على ذلك:

ـ ما أخرجه البخاري (2335) عن

(7) «المدوَّنة الكبرى» (473/4).
(8) «الأمُّ» (41/4).
(9) «التَّلقين» للقاضي عبد الوهَّاب (170/2)، «الذَّخيرة» للقرافي (148/6).
(10) (ص121).
(11) «المبسوط» للسَّرخسي (296/23).
(12) «المنتقى» (384/7) بتصرُّف يسير.
(13) «المنتقى للباجي» (383/7)، «المحلَّى» لابن حزم (237/8).
(14) «المدوَّنة الكبرى» (473/4).
(15) «المنتقى للباجي» (384/7).
(16) «البحر الرَّائق» (240/8)، «درر الحكَّام في شرح مجلَّة الأحكام» لعلي حيدر، المادة (1277)، «الذَّخيرة» للقرافي (148/6)، «تكملة المجموع» للمطيعي (212/15)، «الإنصاف» للمرداوي (272/6).
(17) «الذَّخيرة» للقرافي (148/6).
(18) «مراتب الإجماع» (ص95)، وانظر: «المبسوط» للسَّرخسي (296/23)، «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (285/22)، «الأمُّ» للإمام الشَّافعي (46/4)، «الإنصاف» للمرداوي (271/6).
(19) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (12166)، والقاضي أبو يوسف في «كتاب الخراج» (ص65)، ويحيى بن آدم في «الخراج» (ص122)، قال الألباني: «هذه الجملة ثابتة عن عمر رضي الله عنه ... وهي وإن كانت لا تخلو من ضعف، فبعضها يقوِّي بعضًا» «الضَّعيفة» (30/2).
(20) «تكملة المجموع شرح المهذَّب» للمطيعي (204/15).

عائشة رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ**» قال عروة: «قضى به عمر رضي الله عنه في خلافته»، ولم ينكره أحد من الصَّحابة رضي الله عنهم[21]، وقال الإمام مالك بعد أن ساق قول الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَنْ أحيا أرضًا ميِّتةً فهي له»، قَالَ: «وعلى ذلك الأمر عندنا»[22]، أيْ: أنَّه من عمل أهل المدينة، وعملهم حجَّة عند الإمام مالك.

ـ وأخرج التِّرمذي عَنْ عبد الله ابن جابر رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحْيَى أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ**»، وفي رواية عند الإمام أحمد: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ، وَمَا أَكَلَتْ العَافِيَةُ**[23] **مِنْهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[24].

ـ واحتجُّوا ـ أيضًا ـ بما رُوي عن أَسْمَرَ بْنِ مُضَرِّسٍ رضي الله عنه قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ فبايعته، فَقَالَ: «**مَنْ سَبَقَ إِلَى مَاءٍ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ فَهُوَ لَهُ**»، قال: فخرج النَّاسُ يَتَعَادَوْنَ يَتَخَاطُّونَ[25]، يعني: يتسابقون عَدْوًا يخطِّطون في الأرض تمهيدًا لتعميرها.

والحكمة من مشروعيَّة إحياء الموات أنَّه سببٌ لزيادة الأقوات والخصب[26]، وهي حكمة يتجلَّى فيها بوضوح حرص الشَّريعة الاسلاميَّة على عمارة الأرض بالغرس والبناء، والمحافظة على البيئة، وحماية مواردها الطَّبيعيَّة.

(21) «المحلَّى» لابن حزم (236/8).
(22) «موطَّأ الإمام مالك» (1230).
(23) الطَّيور.
(24) التِّرمذي (1379)، أحمد (14500)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (1550).
(25) أخرجه أبو داود (2669)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (11559)، وضعَّفه الشَّيخ الألباني في «الإرواء» (1553).
(26) «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (239/2).



المبحث الخامس
أثر تحجير الأرض

اتَّفق الفقهاء على أنَّ إحياءَ الموات إذا استجمع شروطه فإنَّه يَثْبُتُ به ملكُ الأرض للَّذي أحياها ملكًا صحيحًا، فمن أحيا أرضًا مواتًا فهي ملك له، تورث عنه، ويجوز له التَّصرُّف فيها بالهبة والبيع والإجارة ونحو ذلك[27].

أمَّا تحجير الموات فقد اختلف الفقهاء في الأثر المترتِّب عنه، ويمكن تقسيم أقوالهم في هذه المسألة إلى ثلاثة مذاهب:

القول الأوَّل: التَّحجير يفيد الملك المؤقَّت بثلاث سنوات، وإليه ذهب بعض مشايخ الحنفيَّة[28]، فإنْ أحياها وإلاَّ خُلِّي بينها وبين من يريد إحياءها.

القول الثَّاني: التَّحجير يتحقَّق به الإحياء، وكلاهما يفيد الملك، أي: أن من تحجَّر أرضًا ملكها، وإليه ذهب طائفة من التَّابعين، وانتصر له الإمام الشوكاني ـ رحمهم الله جميعا ـ[29].

(27) «المبسوط» للسَّرخسي (29/3)، «بدائع الصَّنائع» للكاساني (195/6)، «الاستذكار» لابن عبد البرِّ (186/7)، «الأمُّ» للشَّافعي (45/4)، «تكملة المجموع شرح المهذَّب» للمطيعي (204/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(28) «البحر الرَّائق» لابن نجيم (240/8).
(29) «الاستذكار» لابن عبد البرِّ (187/7)، «السَّيل الجرَّار» للشَّوكاني (ص594).

واحتجُّوا بحديث جابر رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحَاطَ حَائطًا عَلَى أَرْضٍ فَهِيَ لَهُ**»[30]، قالوا: بناءُ الحائط حولَ الأرض تحجيرٌ، وليس إحياءً، ومع ذلك فقد ملك به الأرضَ بنصِّ الحديث.

وليس في هذا الحديث حجَّةٌ لما ذهبوا إليه؛ لأنَّه لم يقل «**مَنْ تَحَجَّرَ أَرْضًا فَهِيَ لَهُ**»، ولكن قال: «**مَنْ أَحَاطَ حَائطًا عَلَى أَرْضٍ فَهِيَ لَهُ**»، فهو في معنى قوله ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ**»، يؤيِّد ذلك أنَّ الإمام الشوكاني نفسَه عدَّ العبارتَين لفظَيْن لحديث واحد[31].

والظَّاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ المرادَ بالإحاطة في الحديث الإحياء، فمن أحاط أرضًا ببناءٍ منيع فقد أحياها، وهي بذلك ملكٌ له، بخلاف المتحجِّر فإنه يضع أحجارًا فقط، ولا يبني حائطًا منيعًا، قال المناوي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «أيْ: من أحيا مواتًا وحاط عليه حائطًا من جميع جوانبه ملكه، فليس لأحد نزعه منه»[32].

القول الثَّالث: التَّحجيرُ يثبتُ به اختصاصُ المتحجِّر بحقِّ إحياء الأرض، ولا يفيد الملك، وإليه ذهب جماهير العلماء، وهو الصَّحيح عند الحنفيَّة، وإليه ذهب المالكيَّة والشَّافعيَّة، وهو الصَّحيح من المذهب عند الحنابلة[33].

(30) أخرجه أبو داود (2673)، وأحمد (19271) عن سمرة ابن جندب رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (14556) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح الجامع» (10896).
(31) «السَّيل الجرَّار» للشَّوكاني (ص592).
(32) «فيض القدير» (37/6)، وانظر: «عون المعبود» (229/8).
(33) «المبسوط» للسَّرخسي (296/23)، «بدائع الصَّنائع» للكاساني (195/6)، «الأمُّ» للإمام للشَّافعي (46/4)، «الأحكام السُّلطانيَّة» للماوردي (ص232)، «تكملة المجموع» للمطيعي (221/15)، «الإنصاف» للمرداوي (271/6).

ومعنى الاختصاص بحقِّ الإحياء: أنَّ من حجَّر أرضًا كان أحقَّ من غيره وأولى بإحيائها، لمدَّة مُحَدَّدة، لا يجوز لغيره تحجيرُها ولا إحياؤها أثناء المهلة، فإن أحياها المتحجِّر في تلك الفترة، وإلاَّ خُلِّي بينها وبين النَّاس.

قال الزَّركشي مبيِّنًا الفرق بين الملك والاختصاص ما نصُّه: «الفرق بين الملك والاختصاص أنَّ الملك يتعلَّق بالأعيان والمنافع، والاختصاص إنَّما يكون في المنافع، وباب الاختصاص أوسع»[34].

واحتجَّ الفقهاء على وضع قيد زمنيٍّ للتَّحجير بقول عمر رضي الله عنه: «وليس لمحتجِّر حقٌّ بعد ثلاث سنين»[35]، فقد نفى استحقاقَ الأرض بعد ثلاث سنين، فدلَّ بمفهومه أنَّ له حقًّا قبل انقضاء المدَّة[36].

واستدلَّ الحنفيَّة[37] بحديث عائشة رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مِنًى مُناخُ مَنْ سَبَقَ**»[38]، ومعنى الحديث: أنَّ من سبق غيرَه إلى موضع في مِنًى، فهو أولى بإناخة إبله فيه، قالوا: والمتحجِّر سبق إلى الأرض، فيكون له فيها حقٌّ؛ لأنَّ السَّبق من أسباب التَّرجيح في الجملة[39]، قال الإمام البيهقي: «والسَّبق أصلٌ في الشَّريعة»[40]، أيْ: أنَّ السَّبق مُعتَبَر، وله تأثير في الأحكام الشَّرعيَّة.

هذا في الجملة، وتفصيل مذهب الجمهور في الفقرات الآتية:

أوَّلاً: مدَّة الاختصاص المستحَقَّة بتحجير الأرض.

ـ ذهب الحنفيَّة إلى أنَّ التَّحجير يحصل به استحقاق الأرض لمدَّة ثلاث سنين، وذكر الإمام الكاساني رحمه الله أنَّه ليس للإمام أن يُقطِعَهَا لأحد ـ يعطيها لمن ينتفع بها ـ غير المتحجِّر المستحقِّ لها، إلاَّ إذَا عطَّلها المتحجِّر ثلاث سنين، ولم يعمُرْها، فله أن يقطعها غيره[41].

ـ أمَّا المالكيَّة فيرون أنَّ المتحجِّر يُخلَّى بينه وبين الأرض لمدَّة سنتين أو ثلاث سنين، فإنْ عمرها، وإلاَّ أقطعها الإمامُ لغيره، هذا ما استحسنه أشهب؛ لأنَّه مروي عن عمر رضي الله عنه[42].

وعن أشهب: لا يكون المتحجِّر أولى لمجرَّد التَّحجير فقط، إلاَّ إذا عُلِم أنَّه حجَّر الأرض ليحييها إلى أيَّام يسيرة، لا ليقطع الأرض عن النَّاس، ويحييها يومًا ما[43].

ـ ولم يحدِّد الشافعية والحنابلة مدَّة معيَّنةً للاختصاص[44] إلاَّ أنَّهم قالوا: إنْ طالت مدَّة التَّحجير، ولم يُتمِّم الإحياء، على السُّلطان أن يقول له: إمَّا أن تعمر، وإمَّا أن ترفع يدك عن الأرض؛ لأنَّه بتحجيره ذاك ضيَّقَ على النَّاس في حقٍّ مشتَرَك بينهم، وليس له ذلك، كما لو وقف في طريق ضيِّق ومنع غيره من المرور فيه، وإن سأل أن يُمهَلَ، أُمهلَ مدَّةً قريبةً، قدَّرها بعض الحنابلة بشهرين أو ثلاثة، وقال بعضهم: يقدِّرها الحاكم بحسب اجتهاده[45].

ثانيًا: نقل الأرض المحجَّرة إلى غير المتحجِّر.

نَصَّ الشَّافعيَّة والحنابلة على أنَّ المتحجِّر يجوز له أن ينقل الأرض المحجَّرة إلى غيره بالهبة أو الإعارة، فإذا فعل صار المنقولُ إليه بمنزلة الأوَّل؛ لأنَّه آثره صاحبُ الحقِّ بهذا الاختصاص، وأقامَه مقامَه، فيُمهَلُ الثَّاني مدَّةً، فإن أحيا الأرض وإلاَّ سقط اختصاصه بإحيائها[46].

ثالثًا: ميراث الأرض المحجَّرة.

ـ اتَّفق الشَّافعيَّة والحنابلة[47] على أنَّ الأرض المحجَّرة ينتقل حقُّ ملكها إلى ورثة المتحجِّر بموته، فيصير الورثة أَوْلَى من غيرهم بإعمارها، وهذه المسألة تندرج تحت قاعدة «**كلُّ ما كان متعلّقا بالمال، أو يُدفع به ضررٌ عن الوارث في عرضه فإنَّه ينتقل إليه**»[48].

واحتجُّوا بقوله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ مَالاً فَهُوَ لِوَرَثَتِه**»[49]، واستدلُّوا ـ أيْضًا ـ بالقياس على الشُّفعة، وذلك أنَّ التَّحجير حقُّ تملُّك ثبت للمتحجِّر، فيجوز انتقاله إلى الورثة، كانتقال الشُّفعة.

ـ وهو مقتضى مذهب المالكيَّة؛ إذ الأصل عندهم أن تُورث الحقوق كالأموال، إلاَّ إذا قام دليل على مفارقة معنى الحقِّ لمعنى المال، وحقُّ التَّحجير متعلِّق بالمال، لا ينفكُّ عنه، فكان موروثًا[50].

(34) «المنثور في القواعد» للزَّركشي (234/3).
(35) سبق تخريجه، وهو ثابت عن عمر رضي الله عنه.
(36) «البحر الرَّائق» لابن نجيم (240/8).
(37) «تحفة الفقهاء» للسَّمرقندي (322/3).
(38) أخرجه أبو داود (2019)، والتِّرمذي (881)، وابن ماجه (3006)، وحسَّنه الشَّيخ الألباني في «صحيح الجامع» (6620).
(39) «بدائع الصَّنائع» للكاساني: (195/6).
(40) «السُّنن الكبرى» للإمام البيهقي (139/10).
(41) «بدائع الصَّنائع» للكاساني (195/6).
(42) «الذَّخيرة» للقرافي (154/6).
(43) «المصدر السَّابق (155/6).
(44) «الأمُّ» الشَّافعي (46/4).
(45) «الأمُّ» الشَّافعي (46/4)، «تكملة المجموع» للمطيعي (220/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6)، «الإنصاف» للمرداوي (272/6).
(46) «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (470/1)، «تكملة المجموع» للمطيعي (219/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(47) «تكملة المجموع» للمطيعي (219/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(48) «الأشباه والنَّظائر» للتَّاج السُّبكي (ص364).
(49) البخاري (2298)، مسلم (1619).
(50) «بداية المجتهد» لابن رشد الحفيد (211/2)، «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (275/39).



رابعًا: بيع الأرض المحجَّرَة:

- لا يصحُّ بيع الأرض المحجَّرة قبل إحيائها، وهذا هو المذهب عند الشَّافعيَّة والحنابلة[51]، واحتجُّوا بالقياس على الشُّفعة، قالوا: إنَّ المتحجِّر لم يملك الأرض بَعدُ، فلا يملك بيعها، كالشَّفيع لا يملك بيع ما يستحقُّه بالشُّفعة قبل أخذه، كما لا يجوز للشَّفيع أن يأخذَ عوضًا نظيرَ تنازله عن حقِّ الشُّفعة.

- وقيل: يصحُّ بيع الأرض المحجَّرة، وهو وجهٌ عند الشَّافعيَّة ذهب إليه أبو إسحاق المروزي (ت: 340هـ)، واحتمال لأبي الخطَّاب الكلوذاني (ت: 510هـ) من الحنابلة، قالوا: لأنَّ المتحجِّر أحقُّ من غيره بالأرض، ولهذا جاز له بيعها[52].

وأجيب عنه بأنَّه لا يصحُّ أن يبيع شيئًا لا يملكه، وحقُّ التَّملُّك المترتِّب عن التَّحجير لا يباع[53].

خامسًا: إذا بادر أحد إلى إحياء الأرض المحجَّرة، فمن الأحقُّ بها؟

اتَّفق الفقهاء - كما سلف - على أنَّ المتحجِّر يسقط حقُّه في إحياء الأرض إذا انقضت المدَّة المستحَقَّة بالتَّحجير، ولم يحيها، فماذا لو أقدم إنسان على إحياء الأرض المحجَّرة قبل انقضاء المدَّة؟

- يرى الأحناف أنَّه لا ينبغي لأحد أن يزعج المتحجِّر فيحيي الأرض المحجَّرة، حتَّى تمضي ثلاث سنين، ولا ينبغي للإمام أن يقطعها غيره، وَهَذَا من طَريق الدِّيَانَة - أي: بين العبد وبين ربِّه، من جهة الفتوى -، وَأَمَّا فِي الحُكْم - يعني: في القضاء - لو أَحْيَاهَا غَيْرُهُ قبل مُضيِّ المدَّة مَلَكَ الأرض؛ لتحقُّق سبب الملك منه من دون المتحجِّر[54].

- وقال الإمام أشهب من المالكيَّة: «إذا حجَّر أحد أرضًا، فجاء غيره، وشرع في إحيائها، فقام المتحجِّر يطلب حقَّه فهما شريكان»[55].

- وللشَّافعيَّة والحنابلة في هذه المسألة وجهان[56]:

الأوَّل: لا يملك المحيي الأرض، والحقُّ للمتحجِّر، وهو الصَّحيح من المذهب عند الحنابلة، واحتجُّوا له بالأدلَّة الآتية:

- لأنَّ مفهوم قوله ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً لَيْسَتْ لأَحَدٍ فَهِيَ لَهُ**» أنَّها لا تكون له إذا كان لمسلم فيها حقٌّ، وكذلك مفهوم قوله ﷺ: «**مَنْ سَبَقَ إِلَى مَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ**».

- قول عمر رضي الله عنه: «ليس لمتحجِّر حقٌّ بعد ثلاث سنين» وهذا يدلُّ على أنَّ للمتحجِّر حقًّا قبل ثلاث سنين، قال ابن قدامة المقدسي: «وهذا يدلُّ على أنَّ من عَمَرَها قبل ثلاث سنين لا يملكها؛ لأنَّ الثَّاني أحيا في حقِّ غيره؛ فلم يملكه، كما لو أحيا ما تتعلَّق به مصالح ملك غيره؛ ولأنَّ حقَّ المتحجِّر أسبقُ فكان أولى، كحقِّ الشَّفيع يُقدَّم على شراء المشتري»[57].

الثَّاني: أنَّ المحيي يملك الأرض - وإن كان ظالمًا - ولا حقَّ للمتحجِّر، وهو ما رجَّحه التَّاج السُّبكي[58]، واحتجُّوا بأنَّ الإحياء يُملكُ به، والحَجْرُ لا يُملكُ به، فثبت الملك بما يملك به دون ما لا يملك به، كمن سبق إلى معدن أو مشرعة ماء فجاء غيره فأزاله وأخذه.

المبحث السَّابع

ضوابط تحجير الأرض الموات

التَّحجير المشروع المعتبر له ضوابط يجب أن يتقيَّد بها، وإلاَّ صار المتحجِّر ظالمًا مغتصبًا، لا عبرة بتحجيره، ولا حرمة لأحجاره، ويمكن توضيح تلك الضَّوابط في النِّقاط الآتية:

الضَّابط الأوَّل: أن يكون المتحجِّر مسلمًا.

اتَّفق الفقهاء على أنَّ المسلم يجوز له تحجير الموات وإحياؤه[59]، كما اتَّفقوا على منع المستأمَن والحربي من الإحياء مطلقًا[60].

والمستأمَن هو من دخل دار الإسلام على أمان مؤقَّت من الحاكم أو من أحد المسلمين، والحربي هو الكافر الَّذي امتنع عن الدُّخول في الإسلام ولم يُعقد له عقدُ ذمَّة ولا عقدُ أمان.

واختلفوا في الذِّمِّي، وهو الكافر الَّذي

(51) «تكملة المجموع» للمطيعي (219/15)، «الإنصاف» للمرداوي (272/6)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(52) «الأحكام السُّلطانية» للماوردي (ص231)، «تكملة المجموع» للمطيعي (219/15)، «الإنصاف» للمرداوي (272/6)، «المغني» لابن قدامة (168/6).
(53) «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (470/1)، «الإنصاف» للمرداوي (272/6).
(54) «المبسوط» للسَّرخسي (297/23)، «بدائع الصَّنائع» للكاساني (195/6)، «تبيين الحقائق» للزَّيلعي (36/6).
(55) «الذَّخيرة» للقرافي (155/6).
(56) «الأحكام السُّلطانيَّة» للماوردي (ص232)، «تكملة المجموع» للمطيعي (220/15)، «المغني» لابن قدامة (168/6)، «الإنصاف» للماوردي (273/6).
(57) «المغني» (168/6).
(58) «الأشباه والنَّظائر» (ص124).
(59) «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (247/2).
(60) «تكملة المجموع» للمطيعي (209/15).

يَعقِدُ مع الحاكم المسلم عَقْدَ أمان على نفسه وماله نظيرَ التزامه بدفع الجزية ونفوذ أحكام الإسلام، اختلفوا في صحَّة إحياء الذِّمِّي على مذهبين:

المذهب الأوَّل: ذهب الحنفيَّة والمالكيَّة والحنابلة إلى أنَّه يجوز للذِّمِّي الإحياء، هذا في الجملة، مع اختلاف في بعض التَّفاصيل.

فذهب الحنفيَّة إلى أنَّ الذِّمي يملك بالإحياء، كما يملك المسلم، كما أجاز المالكيَّة إحياء الذِّمي؛ لعموم الحديث إلاَّ في جزيرة العرب؛ لقوله ﷺ: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»[61]، قال مالك: «جزيرة العرب الحجاز ومكَّة والمدينة واليمن»[62].

المذهب الثَّاني: ذهب الشَّافعيَّة إلى أنَّه لا يجوز للكافر الإحياء مطلقًا في بلاد الإسلام، ولا يجوز للإمام أن يأذن له، وهو مذهب عبد الله بن المبارك، إلاَّ أنَّه جوَّزه بإذن الإمام، ومذهب ابن القصَّار من المالكيَّة قال: «لا يجوز للإمام أن يأذن للذِّمِّي في الإحياء مطلقًا، وانتصر له ابن حزم الظَّاهري، ورجَّحه الأمير الصنعاني - رحمهم الله جميعا -»[63].

وأدلَّة المذهبين مسطورةٌ في مظانِّها في كتب الفقه الإسلامي، وقد تركت عرضَها تجنُّبًا للإطالة، خاصَّةً وأنَّه لا وجود لأهل الذِّمَّة بين المسلمين اليوم.

الضَّابط الثَّاني: أن تكون الأرض مواتًا: فما لم يكن مواتًا لا يجوز إحياؤه

(61) البخاري (3053)، مسلم (1637).
(62) «الكافي» لابن عبد البرِّ (948/2)، «الذَّخيرة» للقرافي (159/6).
(63) «تكملة المجموع» للمطيعي (208/15)، «الذَّخيرة» للقرافي (159/6)، «أحكام أهل الذِّمَّة» لابن القيِّم (1226/3)، «المحلَّى» لابن حزم (243/8)، «سبل السَّلام» للصَّنعاني (83/3).

ولا تحجيره بالإجماع[64]، وكذلك الموات الَّذي كان عامرًا ثمَّ اندثر، فرجع مواتًا، فهو لأهله لا يجوز إحياؤه إلاَّ بإذنهم[65].

الضَّابط الثَّالث: أن لا تكون الأرض مملوكةً لأحد من قبل، لا لمسلم ولا لذمِّيٍّ، وأن لا تكون حريمًا لأرض مملوكة[66]: قال الإمام ابن عبد البرِّ: «أجمع العلماء على أنَّ ما عُرِفَ مُلكًا لمالك غير منقطع أنَّه لا يجوز إحياؤه وملكه لأحد غير أربابه»[67]، فلما لم يجز إحياؤه لم يجز تحجيره؛ لأنَّ التَّحجير شروع في الإحياء.

وخالف في حريم العامر[68] داود ابن علي الظَّاهري، فذهب إلى أنَّه يُملكُ بالإحياء، وأجيب عنه بأنَّ حريمَ العامر لا يزال في عهد النَّبيِّ ﷺ، وفي عهد خلفائه الرَّاشدين لأهله، لم يتعرَّض أحد لإحيائه، ولا يخفى ما يترتَّب على إحياء العامر من ضرر، فصار التَّعرُّض له ممنوعًا[69].

(64) «الذَّخيرة» للقرافي (148/6)، «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (242/2).
(65) «تكملة المجموع» للمطيعي (206/15).
(66) «الأحكام السُّلطانيَّة» للماوردي (ص231)، «تكملة المجموع» للمطيعي (205/15)، «السَّيل الجرَّار» للشَّوكاني (ص592).
(67) «التَّمهيد» (285/22)، «الاستذكار» (185/7).
(68) هو ما اتَّصل بالأرض ممَّا حولها من حقوقها ومرافقها، سمِّيَت بذلك لأنَّه يحرم على غير مالكه.
(69) «تكملة المجموع» للمطيعي (208/15).



الضَّابط الرَّابع: أن لا تكون الأرض محجَّرة: فلا يجوز تحجير الأرض المحجَّرة بالإجماع[70].

الضَّابط الخامس: أن لا يحجِّر ما يضعف على إحيائه[71]: قال الإمام أشهب من المالكيَّة: «وأَمَّا مَن يُحَجِّرُ مَا لا يَقْوَى عَلَيْه فَلَهُ مِنْهُ مَا عَمَّر»[72]، وقال الإمام الشَّافعي مبيِّنًا أنَّ للسُّلطان منعَ المتحجِّر من تحجير ما لا يقوى على إصلاحه: «للسُّلْطَانِ أَنْ لا يُعْطِيَهُ وَلا يَدَعَهُ يَتَحَجَّرُ على المُسْلمِينَ شيئًا لا يَعْمُرُهُ ولم يَدَعْهُ أَنْ يَتَحَجَّرَ كَثِيرًا يَعْلَمُهُ لا يَقْوَى عليه وَتَرَكَهُ وَعِمَارَةَ ما يَقْوَى عليه»[73]، وقيل: يبطل تحجيره في الأرض كلِّها، ما يقدر عليه وما لا يقدر؛ لأنَّه لا يتميَّز، بناءً على قاعدة «**إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام**»[74].

الضَّابط السَّادس: أن يكون التَّحجير بإذن الإمام.

اختلف الفقهاء في إذن الإمام هل هو مشترط لجواز إحياء الموات وتحجيره أم لا؟ وهذا تفصيل مذاهبهم وأدلتهم:

أوَّلاً: مذاهب الفقهاء:

المذهب الأوَّل: لا يشترط إذن الإمام في إحياء الموات فمن أحيا أرضًا مواتًا بلا إذن من الإمام ملكها، ذهب إلى ذلك الشَّافعيَّة والحنابلة والصَّاحبان أبو يوسف ومحمَّد من الحنفيَّة، وهو قول إسحاق وأبي ثور وداود، واختاره الإمام ابن حزم الظَّاهري، واستظهره

(70) «السَّيل الجرَّار» للشَّوكاني (ص592)، «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (243/2).
(71) «الذَّخيرة» للقرافي (154/6).
(72) «المنتقى» للباجي (384/7).
(73) «الأمُّ» (46/4).
(74) «الأشباه والنَّظائر» للسُّيوطي (109/1).

الإمام الشَّوكاني[75].

المذهب الثَّاني: يشترط إذن الإمام سواءٌ أكانت الأرض الموات قريبةً من العمران أم بعيدة، فإن أحياها بغير إذنه فللإمام أن يخرجها من يده، ويصنع فيها ما يراه مصلحةً من إجارة أو إقطاع، وإليه ذهب الإمام أبو حنيفة[76].

المذهب الثَّالث: يشترط إذن الإمام في إحياء وحيازة الموات القريب من العمران، وأمَّا ما كان في فيافي الأرض فلا يشترط فيه الإذن، ذهب إلى ذلك الإمام مالك[77].

وضابط القرب والبعد عند المالكيَّة أنَّ البعيدَ ما كان بينه وبين العمران مسير يوم، وهو ما لا تدركه المواشي في غدوِّها ورواحها[78].

والبعيد عند الحنفيَّة أن يقف الرَّجل في طرف العمران، فينادي بأعلى صوته، فإلى أيِّ موضع ينتهي صوته يكون من فناء العمران؛ لأنَّ سكَّان ذلك الموضع يحتاجون إلى ذلك؛ لرعي المواشي وما أشبه ذلك، وما وراء انتهاء الصَّوت فهو من الموات[79].

ثانيًا: أدلَّة المذاهب:

. احتجَّ المسقطون لشرط إذن الإمام بما يأتي:

. من السُّنَّة: قوله ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ**» ووجه الدَّلالة أنَّ ظاهرَه يدلُّ على العموم، فمن أحيا أرضًا ميتةً فهي له، أذن الإمام أم لم يأذن، فيُحملُ على عُمومه[80]، قالوا: ومثل هذا في لسان الشَّرع بيان لسبب الملك الَّذي هو الإحياء، ولا حاجة لإذن الإمام بعد إذن النَّبيِّ ﷺ لمن أحيا أرضًا بأنَّها له[81].

وأجاب الحنفيَّة بجوابين:

الأوَّل: أنَّه ليس في لفظ هذا الحديث ما ينفي اشتراط إذن الإمام، وغاية ما يدلُّ عليه أنَّ الإحياء سبب للملك، قالوا: وبه نقول[82].

الثَّاني: قالوا: يحتمل أنَّ هذا الحديث إذن لقوم مخصوصين، وليس نصبًا لشرع[83].

. من القياس: قياس الموات على الصَّيد والحَطَب؛ لأنَّه لا حقَّ لأحد في الأرض الموات، فكلُّ من سبقت يدُه إليها، وتمَّ إحرازُه لها، فهو أحقُّ بها، كمن أخذ صيدًا أو حطبًا أو حشيشًا، أو وجد معدنا أو رِكازًا في موضع لا حقَّ لأحد فيه[84].

. واستدلَّ المالكيَّة على أنَّ إذن الإمام مشترط في إحياء الأرض القريبة من العمران بحديث سعيد بن زيد رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحْيَى أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ**»[85]، والعرق الظَّالم أن ينطلق الرَّجل إلى أرض غيره فيغرسها[86]، قال الباجي: «والَّذي يحيي بقرب العمران قد يظلم في إحيائه، ويستَضِرُّ النَّاس بذلك؛ لتضييقه عليهم في مسارحهم، وعمارتهم، ومواضع مواشيهم، ومرعى أغنامهم، فاحتاج إلى نظر الإمام واجتهاده في ذلك»[87].

. واحتجَّ الحنفيَّة لمذهب إمامهم بما يأتي:

. من السُّنَّة:

. حديث معاذ رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال: «**إِنَّمَا لِلمَرْءِ مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ**»[88]، فتبيَّن بهذا الحديث شرطُ الملك، وهو إذن الإمام، أمَّا سبب الملك فهو الإحياء كما ورد في الحديث الآخر، وشرطه إذن الإمام[89]، قالوا: وهذا الحديث وإن كان عامًّا في إحياء الموات وغيره، إلاَّ أنَّه يترجَّح على الخاصِّ؛ لأنَّ من أصول الإمام أبي حنيفة أنَّ العامَّ المتَّفقَ على قبوله يترجَّح على الخاصِّ[90].

وأجاب الإمام القرافي عن هذا الاستدلال بأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو إمام الأمَّة، وقد طابت نفسه بالملك؛ لتصريحه بذلك[91]، كما يمكن أن يجاب بأنَّ الحديث ضعيف لا تقوم به الحجَّة.

. قوله ﷺ: «**عَادِيُّ**[92] **الأَرْضِ لله**

---

(75) «كتاب الخراج» للقاضي أبي يوسف (ص65)، «المبسوط» للسَّرخسي (29/3)، «الاستذكار» لابن عبد البرِّ (187/7)، «الأمُّ» الشَّافعي (46/4)، «تكملة المجموع» للمطيعي (204/15)، «المحلَّى» لابن حزم (233/8)، «نيل الأوطار» للشَّوكاني (34/6).

(76) «كتاب الخراج» للقاضي أبي يوسف (ص64)، «المبسوط» للسَّرخسي (29/3).

(77) «المدوَّنة الكبرى» (473/4)، «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (285/22) «المنتقى» للباجي (379/7).

(78) «المنتقى» للباجي (381/7).

(79) «المبسوط» للسَّرخسي (295/23).

(80) «المنتقى» للباجي (379/7)، «تكملة المجموع» للمطيعي (204/15).

(81) «المبسوط» للسَّرخسي (29/3).

(82) «المصدر السَّابق» (296/23).

(83) «بدائع الصَّنائع» للكاساني (195/6).

(84) «المبسوط» للسَّرخسي (295/23)، «تكملة المجموع» للمطيعي (204/15).

(85) أخرجه أبو داود (3073)، والتِّرمذي (1378)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (1520).

(86) «التَّمهيد» (281/22).

(87) «المنتقى» للباجي (380/7)، «الفروق» للقرافي (349/1).

(88) أخرجه الإمام الطَّبراني في «المعجم الكبير» (3533)، و«المعجم الأوسط» (6883)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (422/17)، وقال الألباني: ضعيف جدًّا، انظر «الضَّعيفة» (5853).

(89) «المبسوط» للسَّرخسي (29/3).

(90) المصدر السَّابق (295/23).

(91) «الذَّخيرة» للقرافي (158/6).

(92) نسبةً إلى قبيلة عاد، أي: ما تقدَّم خرابه إلى عهد عاد، إشارة إلى تقدُّم الزَّمن، انظر: «المبسوط» للسَّرخسي (297/23).

وللرَّسُول، ثُمَّ لَكُمْ مِنْ بَعْدُ»[93]، فَمَا كَانَ مُضَافًا إلى الله تعالى والرَّسول ﷺ فالتَّدبير فيه إلى الإمام، فلا يستَبدُّ أحدٌ به بغَير إذن الإمام[94].

- حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَحْيَى أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ، وَلَيْسَ لعرْق ظَالم حَقٌّ»[95]، قالوا: قوله ﷺ: «وَلَيْسَ لعرْق ظَالم حَقٌّ» فيه إشارة إلى اشتراط إذن الإمام[96].

- **من القياس:** القياس على الغنيمة، وذلك أنَّ الموات مغنوم؛ لوصوله إلى يد المسلمين بإيجاف الخيل والرِّكاب، فليس لأحد أن يختصَّ به بدون إذن الإمام كما في سائر الغنائم[97].

وأجاب الإمام القرافي بأنَّه قياس مع الفارق؛ لأنَّ الغنائم تحتاج إلى إخراج الخُمس، وتقرير حقوق الغانمين من فارس وراجل، بخلاف الإحياء فلا يحتاج إلى ذلك[98].

- **من المصلحة:** جَعْلُ التَّدبير في مثل هذه الأمور إلى الأئمَّة هو مقتضى المصلحة، ذلك أنَّ إذن الإمام يمنع الخصومة بين النَّاس في الموضع الواحد، فيكون إذنُه فصلاً بين المتخاصمين، وإطفاءً لثائرة الفتنة، وليس في هذا القول ردٌّ للأثر، وإنَّما رَدُّ الأثر أن يقول: من أحياها بإذن الإمام فليست له[99].

ثالثًا: سبب الخلاف والقول المختار: قال الإمام القرافي مبيِّنًا سبب اختلاف الفقهاء في هذه المسألة بقوله: «المسألة مبنيَّةٌ على قاعدة، وهو أنَّه ﷺ له أن يتصرَّف بطريق الإمامة؛ لأنَّه الإمام الأعظم، وبطريق القضاء؛ لأنَّه القاضي الأحكم، وبطريق الفتيا؛ لأنَّه المفتي الأعلم، ويتَّفق العلماء في بعض التَّصرُّفات وإضافته إلى أحد هذه العبارات ويختلفون في بعضها... وكذلك اختلف ههنا، هل هو تصرُّفٌ بالفتيا فلا يحتاج الإحياء إلى إذن الإمام، أو بالإمامة فيحتاج؟ والقائلون بأنَّه بالفتيا منهم من راعى قواعد مصلحته يفرِّق بين ما فيه ضرر وما لا ضرر فيه ومنهم من لم يراع ذلك»[100].

والقول المختار هو مذهب الجمهور القائلين بعدم اشتراط إذن الإمام في صحَّة الإحياء لعموم الحديث، ولأنَّ أدلَّة المثبتين لشرط الإذن لا تَسْلَمُ من الاعتراض كما سبق، ومع ذلك فرعاية الحاكم لمثل هذه الشُّؤون بالعدل والإنصاف والمصلحة فيه سدٌّ لباب الخصومة، كما صرَّح بذلك الإمام أبو حنيفة.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الَّذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

❁❁❁

(93) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (12166)، والقاضي أبو يوسف في «كتاب الخراج» (ص65)، ويحيى بن آدم في «الخراج» (ص122)، وضعَّفه الألباني في «الضَّعيفة» (553).
(94) «المبسوط» للسَّرخسي (23/295).
(95) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.
(96) «المبسوط» للسَّرخسي (23/296).
(97) «بدائع الصَّنائع» للكاساني (6/195).
(98) «الذَّخيرة» للقرافي (6/158).
(99) «كتاب الخراج» للقاضي أبي يوسف (ص64)، «المبسوط» للسَّرخسي (3/29).
(100) «الذَّخيرة» (6/157).



عقيدة السلف في ولاة الأمور

■ د/سعود الدعجان
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الَّذي عليه إجماع أهل السُّنَّة والجماعة ودلَّت عليه النُّصوص القَطعيَّة المتواترة منَ الكتَاب والسُّنَّة تأكيد وضرورة وجوب السَّمع والطَّاعة لولاة أمور المسلمين بالمعروف في غير معصية، ووجوب الصَّبر على جورهم وظلمهم وترك الخروج عليهم، وهو أصلٌ عظيمٌ من أصول أهل السُّنَّة، ولذلكَ يذكُرونه في عقائدهم[1]، ويعتَبرون المُخالف لذلكَ من أهل البدع كالخَوارج والمعتَزلة.

■ والدَّليل على ذلك:

أوَّلاً: من الكتاب:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

اختلفت أقوال أهل العلم في المقصود بأولي الأمر ـ هل هُم العُلماء أم الأمراء ـ قال ابن جرير الطَّبريُّ ـ بعد أن ذكر هذه الأقوال ـ: وأولى الأقوال في ذلك بالصَّواب قول مَن قال: هُم الأمراء والولاة لصحَّة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمَّة والولاة فيما كان طاعة وللمسلمين مصلحة»[2].

ثانيا: من السُّنَّة:

□ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إنَّكُم سَتَرَوْنَ بَعْدي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا! قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا الله حَقَّكُمْ»[3].

□ وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[4].

□ وعن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَة في العُسْرِ وَاليُسْر، وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَه، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ الله تَعَالَى فيه بُرْهَانٌ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لاَ نَخَافُ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ»[5].

□ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقُول: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَة لَقِيَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَة وَلاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ في عُنُقِه بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[6].

□ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ في عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»[7].

□ وعن وائل بن حُجر رضي الله عنه قال: سأل سلمة بن يزيد الجُعفيُّ رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألُونا حقَّهم، ويمنعونا حقَّنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثمَّ سأله، فقال رسول الله ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»[8].

(1) انظر: «صحيح البخاري» كتاب الفتن وكتاب الأحكام: باب السَّمع والطَّاعة للإمام ما لم تكن معصية، و«صحيح مسلم» كتاب الأمارة، وكتاب «الشَّريعة» للآجري: باب السَّمع والطَّاعة لمن ولي أمر المسلمين والصَّبر عليهم وإن جاروا وتَرك الخُروج عليهم ما أقامُوا الصَّلاة (1/373 ـ 384)، و«العقيدة الطَّحاوية مع شرحها» لابن أبي العز الحَنَفي (ص 428 ـ 430)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» للالكائي: «سياق ما روي من المأثور عن السَّلف في جمل اعتقاد أهل السُّنَّة والتَّمسُّك بها والوصيَّة بحفظها قرنًا بعد قرن» (1/151 ـ 186) و«سياق ما روي عن النَّبيِّ ﷺ في طاعة الأئمَّة والأمراء ومنع الخروج عليهم» (7/1223 ـ 1229)، و«أصول السنة» لابن أبي زمنين: «باب في وجوب السمع والطاعة» (ص 275 ـ 280)، و«الحجَّة في بيان المحَجَّة»: «باب في بيان منع الخروج على ولي الأمر» (2/391 ـ 392)، وكتاب «معاملة الحكَّام في ضوء الكتاب والسُّنَّة» لعبد السَّلام بن برجس، وكتاب «ضوابط معاملة الحاكم عند أهل السُّنَّة والجماعة» للدكتور خالد الظفيري، وكتاب «الخوارج في الشَّرع والتَّاريخ» لفيصل جاسم قزار.

(2) «جامع البيان في تفسير القرآن» (5/150).

(3) البخاري (1052)، ومسلم (1843).

(4) البخاري (7053)، ومسلم (1849).

(5) البخاري (7055 ـ 7056)، ومسلم (1840).

(6) مسلم (1851).

(7) مسلم (1836).

(8) مسلم (1846).



□ قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ كما نقل ذلك عنه ابن أبي زيد القيرواني، قال: «والسَّمع والطَّاعة لأئمَّة المسلمين، وكلّ من ولي من أمر المسلمين عن رضًا أو عن غلبة فاشتدَّت وطأته من برٍّ أو فاجر، فلا يخرج عليه جارَ أو عدلَ، ويغزى معه العدوّ ويحجُّ البيت، ودفعَ الصَّدقات إليهم مجزيَّة إذا طلبوها، ونصلّي خلفهم الجمعة والعيدين»، ثمَّ قال: «وكلّ ما قدَّمنا ذكره فهو قول أهل السُّنَّة وأئمَّة النَّاس في الفقه والحديث على ما بيَّنَّاه، وكلّه قول مالك فمنه منصوص من قوله ومنه معلوم من مذهبه»[9].

وأمَّا ما رواه الطَّبريُّ في «تاريخه» (560/7) وذكره القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (134/2) عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّه أفتى بالخروج على محمَّد بن عليٍّ المعروف بالنَّفس الزَّكيَّة؛ فقيل له: إنَّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر؛ فقال: إنَّما بايعتُم مُكرَهين، وليسَ على مُكره يمين، فأسرَع النَّاسُ إلى محمَّد، ولزمَ مالكٌ بيتَه؛ فالجوابُ عن ذلك من ثلاثة أوجه:

الأوَّل: عدم صحَّة هذه الرِّواية وذلك أنَّ فيها علَّتين؛ انظر كتاب «ضوابط معاملة الحاكم عند أهل السُّنَّة والجماعة» لخالد ضحوي الظفيري (2/ 538.539).

الثَّاني: أنَّ الإمام مالكا في كتابه «الموطَّأ» عقد كتابًا في البيعة روى فيه عن عبد الله بن دينار أنَّ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه؛ «الموطَّأ» (983/2).

وروايته لذلك إقرارٌ منه للبيعَة لوليِّ الأمر.

ثالثًا: إنكار الإمام مالك على الخَوارج الَّذين يخرجون على الحكَّام، وأمره بقِتالهم.

وهذا ما قال به جمهور أهل السُّنَّة والجماعة:

□ قال الإمام محمَّد بن إسماعيل البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقيت أكثر من ألف رجُل من أهل العلم، أهل الحجاز ومكَّة والمدينةَ والكوفةَ والبصرةَ وواسط وبغداد والشَّام ومصر: لقيتُهم كَرَّات قرنًا بعد قَرن، ثمَّ قرنًا بعد قرن، أدركتُهم وهُم مُتوافرون منذُ أكثر من ستٍّ وأربعين سنة، أهل الشَّام ومصر والجزيرة مرَّتين والبَصرة أربع مرَّات في سنين ذوي عدد، بالحجاز ستَّة أعوام ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدِّثي أهل خراسان ..»، ثمَّ ذكر عددًا ممَّن لقيَهُم، ثمَّ قال:

«واكتفينا بتسمية هؤلاء كي يدوَّن مختصرًا وأن لا يطولَ ذلكَ فما رأيتُ واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء»، إلى أن قال: «وأن لا ننازع الأمر أهله لقول النَّبيِّ ﷺ: «ثَلاثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِم: إِخْلاَصُ العَمَلِ للهِ، وطَاعَةُ وُلاَةِ الأَمْرِ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[10]، ثمَّ أدرك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وأَنْ لاَ يَرَى السَّيْفَ عَلَى أُمَّة مُحَمَّد»[11].

وقال الإمام ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«سألتُ أبي وأبا زُرعَة عن مذهب أهل السُّنَّة في أصُول الدِّين وما أدركا عليه العُلماءَ في جميع الأمصار ما يعتقدان من ذلك؟ فقال: أدركنا العُلماء في جميع الأمصار - حجازا وعراقا وشامًا ويمنًا - فكان مذهبهم....» إلى أن قالا:

«ولا نَرى الخروج على الأئمَّة ولا القتال في الفتنة ونسمع ونطيع لمن ولاَّه الله عَزَّ وَجَلَّ أمرنا، ولا ننزع يدًا من طاعة، ونتَّبع السُّنَّة والجماعة، ونجتنب الشُّذوذ والخلاف والفُرقة»[12].

□ وقال الإمام إسماعيل بن يحيى رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح السُّنَّة» له[13]: «والطَّاعة لأولي الأمر فيما كان عند الله عَزَّ وَجَلَّ مرضيًّا، واجتناب ما كانَ عند الله مسخطًا.

وترك الخروج عند تعدِّيهم وجورهم، والتَّوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ كيما يعطف بهم على رعيَّتهم»؛ ثمَّ قال: «هذه مقالات وأفعال أجمع عليها الماضون والأوَّلون من أئمَّة الهُدى، وبتوفيق الله اعتَصم بها التَّابعون قدوةً ورضًى، وجانبوا التكلُّف فيمَا كفوا».

□ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في اعتقاده: «ولا يحلُّ قتال السُّلطان، ولا الخروج عليه لأحد من النَّاس، فمن فعل ذلك فهو

(9) انظر «مقدمة ابن أبي زيد القيرواني» لكتابه المسمى: «الجامع في السُّنن والآداب والمغازي والتَّاريخ» وقد طبعت هذه المقدِّمة بدار الميراث النَّبوي بالجزائر في كتاب مستَقلٍّ بتحقيقي.

(10) رواه أحمد في المسند (225/3) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (187).

(11) انظر «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (176.173/1).

(12) انظر «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (177.176/1).

(13) (ص 84. 85).

مبتدع على غير السُّنَّة والطَّريق»[14].

□ وقال الإمام علي بن المديني رحمه الله: «ومَن خرج على إمام من أئمَّة المسلمين، وقد اجتمع عليه النَّاس، فأقرُّوا له بالخلافة بأيِّ وجه كانت؛ برضا أو غلبة، فهو شاقٌّ هذا الخارج عليه العصا، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن ماتَ الخارجُ عليه مات ميتة جاهليَّة، ولا يحلّ قتال السُّلطان، ولا الخروج عليه لأحد من النَّاس، فمَن عمل ذلك فهو مبتدع على غير السُّنَّة»[15].

□ وقال الطَّحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصَّلاح والمعافاة»[16].

□ وقال الإمام أبو عثمان الصَّابوني رحمه الله في «بيان عقيدة السَّلف وأصحاب الحديث»: «ولا يرونَ الخروجَ عليهم بالسَّيف، وإن رأوا العُدول منهم عن العَدل إلى الجَوْر والحَيْف، ويرون قتالَ الفئة الباغية حتَّى ترجع إلى طاعة الإمام العدل»[17].

□ وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «وأمَّا أهلُ العلم والدِّين والفَضل فلا يرخِّصون لأحد فيما نهَى الله عنه من معصية وُلاة الأمور وغشِّهم والخُروج عليهم بوجه من الوجوه، كما قَد عُرف من عادات أهل السُّنَّة والدِّين قديما وحديثا»[18].

(14) انظر «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (161/1).
(15) انظر «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (168/1).
(16) «العقيدة الطَّحاوية» مع شرحها لابن أبي العز الحنفي (ص427).
(17) «عقيدة السَّلف أصحاب الحديث» (ص106).
(18) «مجموع الفتاوى» (11/35).

والحكمةُ في تحريم الخروج عليهم مع إظهارهم المنكرات؛ لأنَّه يترتَّب عليه منكرٌ أعظم منه، قال الإمام ابن القيِّم: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ شرع لأمَّته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبُّه الله ورسوله، فإذا كان إنكارُ المنكر يستلزم ما هو أنكَر منه وأبغض إلى الله ورسوله، فإنَّه لا يسوغُ إنكاره ـ وإن كان الله يبغضُه ويمقتُ أهلَه ..

وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنَّه أساسُ كلِّ شرٍّ وفتنة إلى آخر الدَّهر؛ وقد استأذن الصَّحابة رضي الله عنهم رسولَ الله ﷺ في قتال الأمراء الَّذين يؤخِّرون الصَّلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: «لاَ، مَا أَقَامُوا الصَّلاَةَ»، وقال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ».

ومن تأمَّل ما جرى على الإسلام ـ في الفتن الكبار والصِّغار ـ رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصَّبر على منكر؛ فطلب إزالته: فتولَّد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكَّة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لمَّا فتح الله مكَّة ـ وصارت دار إسلام ـ عزم على تغيير البيت، وردِّه على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك ـ مع قدرته عليه ـ خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقُرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر.

ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتَّب عليه من وقوع ما هو أعظم منه ـ كما وُجد ـ سواء»[19].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «أهل السُّنَّة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة التغابن]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

ويعلمون أنَّ الله تعالى بعث محمَّدًا ﷺ بصلاح العباد في المعاش والمعاد، وأنَّه أمر بالصَّلاح، ونهى عن الفساد: فإذا كان الفعل فيه صلاح وفساد: رجَّحوا الرَّاجح منهما، فإذا كان صلاحه أكثر من فساده رجَّحوا فعلَه؛ وإن كان فسادُه أكثر من صلاحه رجَّحوا تركَه.

فإنَّ الله تعالى بعث رسولَه ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فإذا تولَّى خليفَة من الخلفاء كيزيد، وعبد الملك، والمنصور وغيرهم؛ فإمَّا أن يقال: يجب منعُه من الولاية، وقتاله حتَّى يُوَلَّى غيره ـ كما يفعله مَن يرى السَّيف ـ؛ فهذا رأيٌ فاسدٌ، فإنَّ مفسدةَ هذا أعظم من مصلحته.

وقلَّ مَن خرج على إمام ذي سلطان إلاَّ كان ما تولَّد على فعله من الشَّرِّ أعظم ممَّا تولَّد من الخير، كالَّذين خرجوا على يزيد بالمدينة، وكابن الأشعث الَّذي خرج على عبد الملك بالعراق، وكابن المهلَّب الَّذي خرج على ابنه بخُراسان، وكأبي مسلم صاحب الدَّعوة الَّذي خرج عليهم بخُراسان ـ أيضا ـ، وكالَّذين خرجوا على المنصور بالمدينة والبصرة، وأمثال هؤلاء.

وغاية هؤلاء: إمَّا أن يغلبُوا؛ وإما أن يُغلَبوا، ثمَّ يزول مُلكهم فلا يكونُ لهم عاقبةٌ؛ فإنَّ عبد الله بن عليٍّ وأبا مسلم هُما اللَّذان قتلا خلقًا كثيرًا، وكلاهما قتله أبو جعفر المنصور، وأمَّا أهل الحَرَّة

(19) «إعلام الموقعين» (12/3).

وابن الأشعث، وابن المهلَّب وغيرهم، فهُزموا وهُزم أصحابُهم فلا أقاموا دينًا، ولا أبقَوا دُنيا.

والله تعالى لا يأمُر بأمر لا يحصُل به صلاح الدِّين ولا صلاحُ الدُّنيا، وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتَّقين ومن أهل الجنَّة، فليسوا أفضَلَ من عليٍّ وعائشة وطلحَةَ والزُّبير وغيرهم، ومع هذا لم يُحمَدوا ما فعلوه من القتال!

وهُم أعظمُ قدرًا عند الله وأحسن نيَّةً من غيرهم. وكذلك أهل الحَرَّة كان فيهم من أهل العلم والدِّين خَلق، وكذلك أصحاب ابن الأشعث، كان فيهم خلق من أهل العلم والدِّين؛ والله يغفر لهم كلَّهم.

وقد قيل للشَّعبي في فتنة ابن الأشعث: أينَ كنتَ يا عامر؟ قال: كنتُ حيث يقول الشَّاعر:

عوى الذِّئب فاستأنست بالذِّئب إذ عَوى
وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

أصابتنا فتنةٌ لم نكُن فيها بررَةً أتقياء! ولا فجرَةً أقوياء!

وكان الحسن البصري يقول: إنَّ الحجَّاج عذابُ الله، فلا تدفعوا عذابَ الله بأيديكم، ولكن؛ عليكم بالاستكانة والتَّضرُّع؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون].

وكان طلق بن حبيب يقول: «اتَّقوا الفتنةَ بالتَّقوى؛ فقيل له: أجمِلْ لنا التَّقوى؛ فقال: أن تعمَلَ بطاعة الله، على نُور منَ الله، ترجو رحمةَ الله، وأن تترُكَ معصيةَ الله على نور منَ الله، تخافُ عذابَ الله» رواه أحمد، وابن أبي الدُّنيا.

وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج، والقتال في الفتنة؛ كما كان عبد الله بن عُمَر، وسعيد بن المسيِّب، وعليُّ ابن الحُسين، وغيرهم: ينهون عامَ الحرَّة عن الخروج على يزيد.

وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث.

ولهذا استقرَّ أمرُ أهل السُّنَّة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصَّحيحة الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصَّبر على جور الأئمَّة، وترك قتالهم وإن كان قد قاتل في الفتنة خلقٌ كثير من أهل العلم والدِّين.

وباب (قتال أهل البغي) و(الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر) يشتبه بـ (القتال في الفتنة)، وليس هذا موضع بسطه.

ومن تأمَّل الأحاديث الصَّحيحة الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ في هذا الباب واعتبر - أيضًا - اعتبارَ أولي الأبصَار؛ علم أنَّ الَّذي جاءت به النُّصوص النَّبويَّة خير الأمور.

ولهذا لمَّا أراد الحُسين رضي الله عنه أن يخرج إلى أهل العراق - لمَّا كاتبوه كتبًا كثيرةً - أشار عليه أفاضلُ أهل العلم والدِّين -، كابن عُمر، وابن عبَّاس، وأبي بكر بن عبد الرَّحمن بن الحارث ابن هشام - أن لا يخرج، وغلبَ على ظنِّهم أنَّه يُقتَل، حتَّى إنَّ بعضَهم قال: أستودعُك الله من قتيل.

وقال بعضُهم: لولا الشَّفاعة لأمسكتُك، ومنعتُك منَ الخروج؛ وهم - في ذلك - قاصدون نصيحتَه، طالبون لمصلحته، ومصلحة المسلمين.

والله ورسوله إنَّما يأمُر بالصَّلاح لا بالفساد؛ لكنَّ الرَّأي يصيب تارةً ويخطئ أخرى، فتبيَّن أنَّ الأمر على ما قاله أولئك، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين، ولا مصلحة دنيا؛ بل تمكَّن أولئك الظَّلمةُ الطُّغاة من سبط رسول الله ﷺ حتَّى قتلوه مظلومًا شهيدًا، وكان في خروجه وقتله منَ الفساد ما لم يكن حصَل لو قعد في بلده؛ فإنَّ ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشَّرِّ: لم يحصل منه شيء، بل زاد الشَّرُّ بخروجه وقتله، ونقصَ الخير بذلكَ وصار ذلك سببًا لشرٍّ عظيم، وكان قتل الحُسين ممَّا أوجب الفتنَ كما كان قتلُ عثمان ممَّا أوجب الفتنَ؛ وهذا كلُّه ممَّا يبيِّن أنَّ ما أمر به النَّبيُّ ﷺ من الصَّبر على جور الأئمَّة، وترك قتالهم والخروج عليهم، هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأنَّ من خالف ذلك - متعمِّدًا أو مخطئًا - لم يحصل بفعله صلاح؛ بل فسادٌ، ولهذا أثنى النَّبيُّ ﷺ على الحسن بقوله: «إنَّ ابْني هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». ولم يُثن على أحد لا بقتال في فتنة ولا بخروج على الأئمَّة ولا نزع يد من طاعة ولا مفارقة للجماعة».

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وممَّا ينبغي أن يعلم أنَّ أسبابَ هذه الفتن تكون مشتركةً، فيرد على القُلوب من الواردات ما يمنعُ القلوبَ عن معرفة الحقِّ وقصده، ولهذا تكون بمنزلة الجاهليَّة، والجاهليَّةُ ليسَت فيها معرفة الحقِّ، ولا قصدُه، والإسلام جاء بالعلم النَّافع، والعمل الصَّالح، بمعرفة الحقِّ، وقصده؛ فيتَّفق أنَّ بعضَ الولاة يظلمُ باستئثار، فلا تصبر النُّفوسُ على ظلمه، ولا يمكنُها دفع ظلمه إلاَّ بما هو أعظم فسادًا منه! ولكن؛ لأجل محبَّة الإنسان لأخذ حقِّه، ودفع الظُّلم عنه لا ينظر في الفساد العامِّ

الَّذي يتولَّد عن فعله، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ»[20].

وكذلك ثبت عنه في «الصَّحيح» أنَّه قال: «عَلَى المَرْءِ المُسْلِم السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي يُسْرِه وَعُسْرِه وَمَنْشَطِه وَمَكْرَهِه وَأَثَرَةٍ عَلَيْهِ»[21] فقد أمر النَّبيُّ ﷺ المسلمين بأن يصبروا على الاستئثار عليهم، وأن يطيعوا ولاة أمورهم وإن استأثروا عليهم، وأن لا ينازعوهم الأمر.

وكثيرٌ ممَّن خرج على ولاة الأمور - أو أكثرهم - إنَّما خرج لينازعهم مع استئثارهم عليه، ولم يصبروا على الاستئثار، ثمَّ إنَّه يكون لوليِّ الأمر ذنوب أخرى فيبقى بغضه لاستئثاره يُعظم تلك السَّيِّئات ويبقى المقاتل له ظانًّا أنَّه يقاتله ﴿..حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ..﴾، ومن أعظم ما حرَّكه عليه طلب غرضه: إمَّا ولاية، وإمَّا مال!!. كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فإذا اتَّفق من هذه الجهة شبهةٌ وشهوةٌ، ومن هذه الجهة شهوةٌ وشبهةٌ قامت الفتنةُ؛ والشَّارع أمر كلَّ إنسان بما هُو المصلحة له وللمُسلمين: فأمر الولاةَ بالعَدل، والنُّصح لرعيَّتهم؛ حتَّى قال: «مَا مِنْ رَاعٍ يَسْتَرْعِيه اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّته، إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ رَائِحَةَ الجَنَّة»؛ وأمر الرَّعيَّة بالطَّاعة والنُّصح كما ثبت في الحديث الصَّحيح: «الدِّينُ النَّصيحَةُ» - ثلاثًا -، قالوا: لمن يا رسُول الله؟ قال: «للهِ وَلِكِتَابِه وَلِرَسُولِه وَلأَئمَّة المُسْلمِينَ وَعَامَّتهِمْ».

وأمر بالصَّبر على استئثارهم، ونهى عن مُقاتلتهم ومنازعتهم الأمر مع ظلمهم؛ لأنَّ الفسَادَ النَّاشئَ من القتال في الفتنة أعظم من فسَاد ظلم وُلاة الأمر، فلا يُزال أخفُّ الفسادين بأعظمهما..».

هذا؛ وإنَّ النَّاظر في تاريخ المسلمين قديمًا وحديثًا يجد أنَّ كثيرًا من المسلمين قد وقعوا في فتنة الخروج على الحكَّام بدعوى أنَّ ما ينزلُ بهم من البلاء والمصائب بسبب ظلم الحكَّام وجورهم، ويغفلون عن أنَّ ذلك بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79] ومع أنَّ ظلم الحاكم وجوره من العُقوبات الَّتي ينزلها الله بعباده عندما يخالفُون أمرَه ونهيَه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]، وقال ﷺ: «وَمَا نَقَصَ قَوْمٌ المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنينَ وَشِدَّة المَؤُونَة وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ»[22]، ويقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام]، وقد قيل: «كما تكونوا يولَّى عليكم»، وقيل: «ما أنكرتَ من زمانك إنَّما أفسَده عليكَ عملُك»، وقال بعضُ أهل العلم عن الحكَّام الظَّلمة: «إنَّ الله ما سلَّطهم علينا إلاَّ بسبب ذُنوبنا».

وقال عبد الملك بن مروان: «ما أنصفتمونا يا معشَر الرَّعيَّة، تريدون منَّا سيرةَ أبي بكر وعُمَر ولا تسيرونَ فينا ولا في أنفسِكُم بسيرتهما»[23].

وقال عبيدة السَّلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين؛ ما بال أبي بكر وعُمَر انطاع النَّاسُ لهما والدُّنيا عليهما أضيَقُ من شبر فاتَّسَعت عليهما، ووُليتَ أنتَ وعُثمان الخلافةَ ولم ينطاعُوا لكُما، وقد اتَّسعت، فصارت عليكما أضيقَ من شبر؟ فقال عليٌّ: لأنَّ رعيَّة أبي بكر وعُمَر كانوا مثلي ومثل عُثمان، ورعيَّتي أنَا اليومَ مثلُك وشبهتُك»[24].

وقد سُلِّط الحجَّاج بن يوسف على الأمَّة بظلمه الكبير، ولمَّا رأى الحسن البصري تذمُّر النَّاس من ولايته بسبب ذلك نصح لهم مستدلاًّ بهذه القاعدة، فقال: «إنَّ الحجَّاج عقوبة من الله ﷻ ولم تَكُ، فلا تستقبلوا عقوبةَ الله بالسَّيف، ولكن استقبلوها بتوبة وتضرُّع واستكانة وتوبوا تُكْفَوْه»[25]، وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43]

مع أنَّ الحجَّاج كان ظلومًا جبَّارًا سفَّاكًا للدِّماء ومع ذلك كان يَنهى عن الخروج عليه، ويعتذر بأنَّ ولايتَه كانت عقوبةً من الله لذنوب النَّاس، كي ينتهوا لما يجب عليهم منَ التَّوبة لا أن يعالجوا أثر ذنوبهم بالسَّيف.

(20) تقدم تخريجه.
(21) تقدم تخريجه.
(22) ابن ماجه (4019)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (106).
(23) كتاب «سراج الملوك».
(24) كتاب «سراج الملوك».
(25) رواه بنحوه ابن سعد في الطبقات (172/7).

ولذلك كانَ منَ الخطأ البيِّن أن يظنَّ أنَّ إصلاحَ الفساد وإزالةَ المنكرات بالخُروج على الحكَّام بالسَّيف أو بالخروج باللِّسان بفضحهم وإظهارِ ما عندَهُم من شرورٍ وفسادٍ مع سبِّهم ولعنِهم وإثارةِ الشُّعوب عليهم عن طريق المظاهرات.

ولذلك كانَ منَ الخطأ البيِّن أن يظنَّ أنَّ إصلاحَ الفساد وإزالةَ المنكرات بالخُروج على الحكَّام بالسَّيف أو بالخروج باللِّسان بفضحهم وإظهارِ ما عندَهُم من شرورٍ وفسادٍ مع سبِّهم ولعنِهم وإثارةِ الشُّعوب عليهم عن طريق المظاهرات.

▫ **والعلاجُ** إنَّما يكون بالأخذ بهدي النَّبيِّ ﷺ، وذلكَ أنَّه ﷺ أمر المسلمَ عند ظلم الحاكم وجورِه وأخذِه للأموال، وسلب حقوقِ العباد ومنعها أمرَه بالآتي:

أوَّلاً: وجوب السَّمع والطَّاعة، حتَّى وإن ظلمَ وجار وأَخَذَ الأمـوال، بل حتَّى وإن جلدَك وضربَك.

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاي وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ» قال: قلتُ: كيفَ أصنَعُ يا رسول الله؛ إن أدركتُ ذلكَ؟ قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[26].

ثانيًا: الصبر إذا رأيت ما تكره من الحاكم، ولا يجوز لك الخروج عليه؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا فَمَاتَ عَلَيْهِ إِلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[27].

ثالثا: أن تـؤدِّي حقَّه عليك وهو السَّمع والطَّاعة في غير معصية وتسأل الله أن يعطيك حقَّك الَّذي منعك منه الحاكم، ولا تطالب الحاكم بحقِّك عن طريق المظاهرات أو الاحتجاجات المؤدِّية للفوضى والاضطراب والفساد وسفك الدِّماء المعصومة وسرقة الأموال واختلال الأمن.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»[28].

وعن سلمة بن يزيد الجُعفي رضي الله عنه قال: يا رسول الله أرأيتَ إن قامَت علينا أمَراء سألونا حقَّهم، ومنعونا حقَّنا فما تأمُرنا؟ قال: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»[29].

وروى مسلم (1836) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ».

رابعا: الدُّعاء له والنَّصيحة؛ قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاَثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ عَلَيْكُمْ»[30].

والنَّصيحة إنَّما تكون سرًّا لا علنًا، قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلاَ يُبْدِهِ عَلاَنِيَةً وَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ وَلْيَخْلُو بِهِ فَإِنْ قَبِلَ وَإِلاَّ فَقَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ»[31]، وقد روي عن الفُضيل بن عياض والإمام أحمد الَّذي سُجن وضُرب وعُذِّب، أنَّ كلَّ واحد منهما كان يقول: «لو كانت لي دعوةٌ مستجابةٌ لجعلتُها لوليِّ الأمر؛ لأنَّه بصلاحِه يصلح العباد والبلاد».

وقد نقل عن بعض السَّلف أنَّه دعا لسلطان ظالم، فقيل له: أتدعو له وهو ظالم؟ فقال: والله أدعو له، وإنَّ ما يدفع الله ببقائه أعظم ممَّا يندفع بزواله، لا سيما إذا ضَمَّن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه[32]، ولأنَّ الوقيعةَ في أعراض الأمراء والحكَّام والاشتغال بسبِّهم، وذكر معائبهم على الملأ وعلى المنابر والقنوات الفضائيَّة وعبر وسائل الإعلام خطيئةٌ كبيرةٌ وجريمةٌ شنيعةٌ نهى عنها الشَّرع المطهَّر وذمَّ فاعلَها، وسبُّ الحكَّام المسلمين والطَّعن فيهم يفتحُ بابَ الفتنة والشَّرِّ على الأمَّة.

ويعتَبر من الخروج على الحاكم



(26) مسلم (1847).

(27) مسلم (1849).

(28) البخاري.

(29) مسلم (1846).

(30) رواه أحمد في المسند (225/3)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (1096).

(31) رواه أحمد في المسند (403/3 ـ 404)، والحاكم في «المستدرك» (290/3)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة»، وحسَّنه الألباني (1096).

(32) رواه ابن سعد في «الطَّبقات» (115/6).



باللِّسان وبسببه يحصل الخروجُ على ولاة الأمر بالسِّلاح الَّذي هو أصلُ فساد الدِّين والدُّنيا معًا، وقد نهى الرَّسولُ ﷺ وكذلك صحابته رضي الله عنهم عن سبِّ الأمراء والطَّعن فيهم، وقد اعتُبر طعنُ ذي الخُويصرة في النَّبيِّ ﷺ ـ الَّذي كان إمامَ المسلمين ـ خروجًا على وليِّ الأمر، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحنُ عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجلٌ من بني تميم، فقال: يا رسول الله! اعدل، فقال: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»، فقال عمر: يا رسول الله! ائذن لي فيه فأضرب عنقَه، فقال: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[33].

ومن هذا الحديث استنبط العلماءُ الخروج باللِّسان من ذي الخويصرة بطعنه في النَّبيِّ ﷺ وهو إمام المسلمين واتِّهامه له بعدم العَدل، وقد ألحقه النَّبيُّ ﷺ بالخوارج مع أنَّه تكلَّم باللِّسان، ولم يحمل سلاحًا، قال شيخ الإسلام: «والنَّبيُّ ﷺ إنَّما ذكر الخوارجَ الحروريَّة؛ لأنَّهم أوَّل صنف من أهل البدع خرجوا بعده، بل أوَّلهم خرج في حياته»، فقوله أوَّلهم خرج في حياته ـ يعني به ذا الخويصرة ـ.

وقد لعن الصَّحابيُّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الَّذين يطعنون في الأمراء استنادًا إلى حديث ذي الخُويصرة، فعن عُقبة بن وساج قال: كان صاحبٌ لي يحدِّثني عن شأن الخوارج وطعنهم على أمرائهم، فحججتُ فلقيتُ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له: أنت بقيَّة أصحاب رسول الله ﷺ وقد جعل الله عندك علمًا، وأناس بهذا العراق يطعنون على أمرائهم ويشهدون عليهم بالضَّلالة! فقال لي: «أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنَّاس أجمعين! أتي رسول الله ﷺ بقليد من ذهب وفضَّة، فجعل يقسمها بين أصحابه، فقام رجل من البادية فقال: يا محمَّد! والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك أن تعدل! فقال ويحك! من يعدل عليه بعدي؟ فلمَّا ولَّى قال: ردُّوه رويدا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ فِي أُمَّتِي أَخًا لِهَذَا يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، كُلَّمَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ـ ثلاثا ـ»[34].

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله: «وهذا أكبر دليل على أنَّ الخروج على الإمام يكون بالسَّيف ويكون بالقَول والكَلام، يعني: هذا ما أخذ السَّيف على الرَّسول ﷺ لكنَّه أنكر عليه، وما يوجد في بعض كتب أهل السُّنَّة من أنَّ الخروج على الإمام هو الخروج عليه بالسَّيف فمرادهم بذلك الخروج النِّهائي الأكبر، كما ذكر النَّبي ﷺ الزِّنا يكون بالعين، يكون بالأذن، يكون باليد، يكون بالرِّجل، لكنَّ الزِّنا الأعظم الَّذي هو الزِّنا على الحقيقة هو زنا الفرج، ولذا قال: «والفرج يصدِّقه أو يكذِّبه» فهذه العبارةُ من بعض العُلماء هذا مُرادُهم، ونحنُ نعلم علم اليقين ـ بمقتضى الحال والطَّبيعة ـ أنَّه لا يمكن خروج بالسَّيف إلاَّ وقد سبقَه خروج باللِّسان والقول، النَّاس لا يمكن أن يأخذوا سيوفَهم يحاربون الإمام بدون شيء يثيرهم وهو الكلام، فيكون الخروج على الأئمَّة بالكلام خروجًا حقيقةً، دلَّت عليه السُّنَّة ودلَّ عليه الواقع.

أمَّا السُّنَّة فعرفتموها، وأمَّا الواقع فإنَّنا نعلم علم اليقين أنَّ الخروج بالسَّيف فرع عن الخروج باللِّسان والقول؛ لأنَّ النَّاس لن يخرجُوا على الإمام بس مجرَّد (يا الله! أمش، خذ السَّيف!) لا بدَّ أن يكون هناك توطئة وتمهيد، قدح في الأئمَّة وستر لمحاسنهم، ثمَّ تمتلئ القلوب غيظًا وحقدا، وحينئذ يحصل البلاء (من شريط سمعي يشرح فيه الشَّيخ كتاب الشَّوكاني: «رفع الأساطين في حكم الاتِّصال بالسَّلاطين» (2/وجه أ).

وممَّا جاء عن السَّلف قول عبد الله ابن عكيم رضي الله عنه: «لا أعينُ على دم

---

(33) البخاري (3610)، ومسلم (2421).

(34) ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (934) وصحَّحه الألباني.



خليفة أبدًا بعد عثمان، فقيل له: يا أبَا معبد! أو أعَنْتَ عليه؟ قال: كنتُ أعدُّ ذكر مساويه عونًا على دمه».

ومن ذلك ما قاله أسامة بن زيد رضي الله عنه لَمَّا قيل له ألا تكلِّم هذا؟ - يعني عثمان بن عفَّان رضي الله عنه - قال: «قد كلَّمته ما دونَ أن أفتح بابًا أكونُ أوَّل مَن يفتَحُه»[35].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الأَرْضِ أَهَانَهُ اللهُ»[36].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «نهانا كبراؤنا من أصحاب رسول الله ﷺ أن لا تسبُّوا أمراءكم ولا تغشُّوهم واصبرُوا، واتَّقوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّ الأمر قريب»[37].

وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: «إنَّ أوَّل نفاق المرء طعنُه على إمامه»[38].

(35) «صحيح البخاري» في كتاب الفتن.
(36) الترمذي (2225)، وأحمد في «المسند» (42/5)، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (386/5)
(37) رواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (1022)، وحسَّنه الألباني ولفظه: «السُّلطان ظلُّ الله في الأرض، فمَن أكرمَه أكرمَه الله، ومَن أهانَه أهانَه الله».
(38) رواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (1105)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (7507)، وابن عبد البر في «التَّمهيد» (21/286 - 287).
(7) مسلم (2963).

هذا؛ وإنَّ ممَّا يَحسنُ التَّنبيه عليه أنَّ النَّهي عن سبِّ الأمراء والحكَّام ليس تعظيمًا لهم وليس إقرارًا لظلمهم ولا تزلُّفًا ولا مداهنةً لهم أو تقرُّبًا، بل هُو طاعة لله ورسوله ﷺ أوَّلاً، ثمَّ محافظةٌ على مقام الولاية وبقاء لهيبتها وحرمتها؛ لأنَّها إذا سقطت حشمتها طمع فيها الأعداء، واستخفَّ بها السُّفهاء، الأمر الَّذي سيؤدِّي بالضَّرر على الأمَّة في دينها ودنياها، وممَّا يؤدِّي إلى عدم طاعتهم وحصول الفوضى من العامَّة، الفوضى الَّتي لا تعودُ على الأمَّة إلاَّ بالشَّر المستَطير واختلال الأمن وإلى الخروج عليهم وقتالهم وسفك الدِّماء البريئة وتلك الطَّامة العظمى والمصيبة الكبرى.

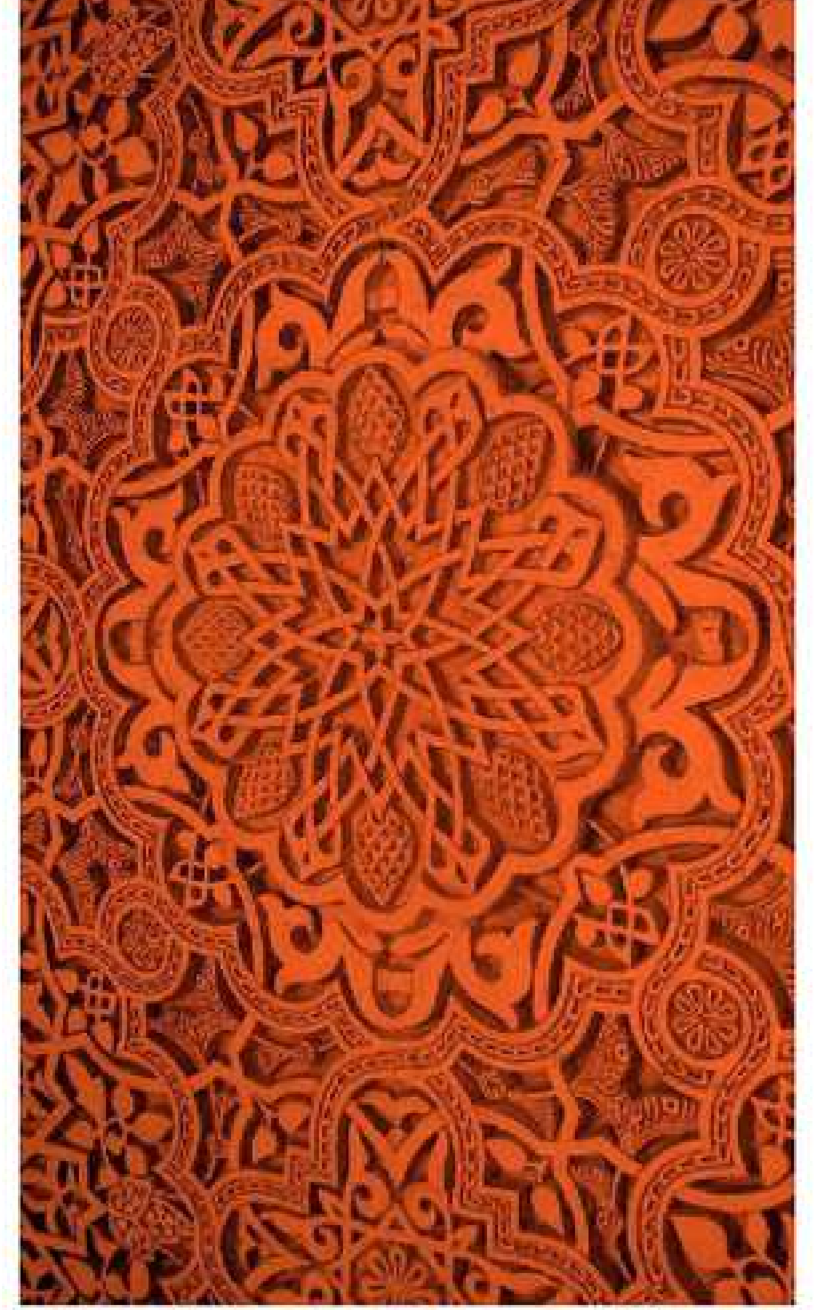
وإنَّ ما حلَّ بكثير من الدُّول الإسلاميَّة اليوم من الفتن والاضطرابات وزوال الأمن وضياع الأنفس والأموال بسبب عدم فهم هذا الأصل العظيم ومن الكفر بالنِّعمة؛ وذلك لأنَّ أغلبَ هذه الشُّعوب سبب ثورانها أنَّها نظرت إلى غيرها ممَّن فُضِّل عليها في الدُّنيا، وهذا مخالفٌ لقوله ﷺ: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ» وفي رواية: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ».

ولم يرضوا ولم يقنعوا بما أنعمَ الله عليهم منَ النِّعم الثَّلاث الَّتي تعدل الدُّنيا وما فيها كما أخبر النَّبيُّ ﷺ بقوله: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»[39]، فكفروا بهذه النِّعم وجحدوها؛ لأنَّهم يريدون غيرها من حطام الدُّنيا فخرجوا على حكَّامهم بدعوى رفع الظُّلم والجور وطلب حقوقهم الَّتي سلبت وكلُّ ذلك من الدُّنيا وليس من الدِّين، ومخالف لأمر النَّبيِّ ﷺ الَّذي أمر بالصَّبر على جور الحكَّام وظلمهم لتبقى نعمة الأمن الَّتي زالت مع نعمة الطَّعام والشَّراب والعافية وحلَّ مكانها الخوف والجوع، وذهاب الأموال والأنفس، قال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً[40] فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ»[41].

قال عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه: بايعَنا رسولَ الله ﷺ على السَّمع والطَّاعة في العُسر واليُسر، والمنشَط والمكرَه وعلى أثرة علينا، وعلى ألاَّ ننازعَ الأمرَ أهلَه، وعلى أن نقول بالحقِّ أينَما كنَّا لا نخافُ في الله لومةَ لائم، قال: «إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ»[42].

فقوله سبحانه في الآية الأولى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ معناه أنَّ ما يحصل للمسلمين من مصائب، هو بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، فمنَ الخطأ البيِّن أن يجعل المسلمون ما يصيبهم من بَلاء هو بسبب حكَّامهم أو أعدائهم، وينسون أنَّ من أعظم أسباب ذلكَ هو كفرهم بنعمَة

(39) الترمذي (2346).
(40) الأثرة، هي: الاستئثار بالمال وغيره من حطام الدنيا.
(41) أخرجه البخاري ومسلم، وقد تقدم في أول المبحث.
(42) أخرجه البخاري ومسلم ،وقد تقدم في أول المبحث.



الله، وارتكاب المنكَرات، وترك الطَّاعات، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ ﴾ [الروم].

فـإذا أراد المسلمونَ التَّغيير إلى الأحسَن فعليهم أن يغيِّروا حالَهم ويصلحُوا أنفسَهم أوَّلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد : 11]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣ ﴾ [الأنفال].

وأخطاء الحكَّام لا تُزال بالسَّبِّ والشَّتم والتَّشهير، ولا بالانقلابات، والمظاهرات، والاعتصامات، والإضرابات، ولا بالعنف والتَّفجير والتَّكفير بغير حقٍّ، وإنَّما تُزال بالتَّوبة والاستغفار، والتَّضرُّع إلى الله وإصلاح العَمل، والجزاء مِن جنس العَمل، فإذا كانَ النَّاسُ خيارًا سُلِّط عليهم الخيار منهُم، وإن كانوا شرارًا سلَّط اللهُ عليهم الأشرار منهم، وكما قيل: «أعمالُكم عمَّالُكُم»، وقال بعضُ السَّلف: «اعلمُوا أنَّكُم كلَّما أحدثتُم ذنبًا، أحدثَ الله من سلطانكم عقوبةً».

قال ابن أبي العزِّ الحنفي:

وأمَّا لزوم طاعتهم وإن جاروا ، فلأنَّه يترتَّب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصَّبر على جورهم تكفير السَّيِّئات ومضاعفة الأجور، فإنَّ الله تعالى ما سلَّطهم علينا إلاَّ لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتَّوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران : 165] وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء : 79]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ ﴾ [الأنعام]؛ فإذا أراد الرَّعيَّة أن يتخلَّصوا من ظلم الأمير الظَّالم فليتركوا الظُّلم[43].

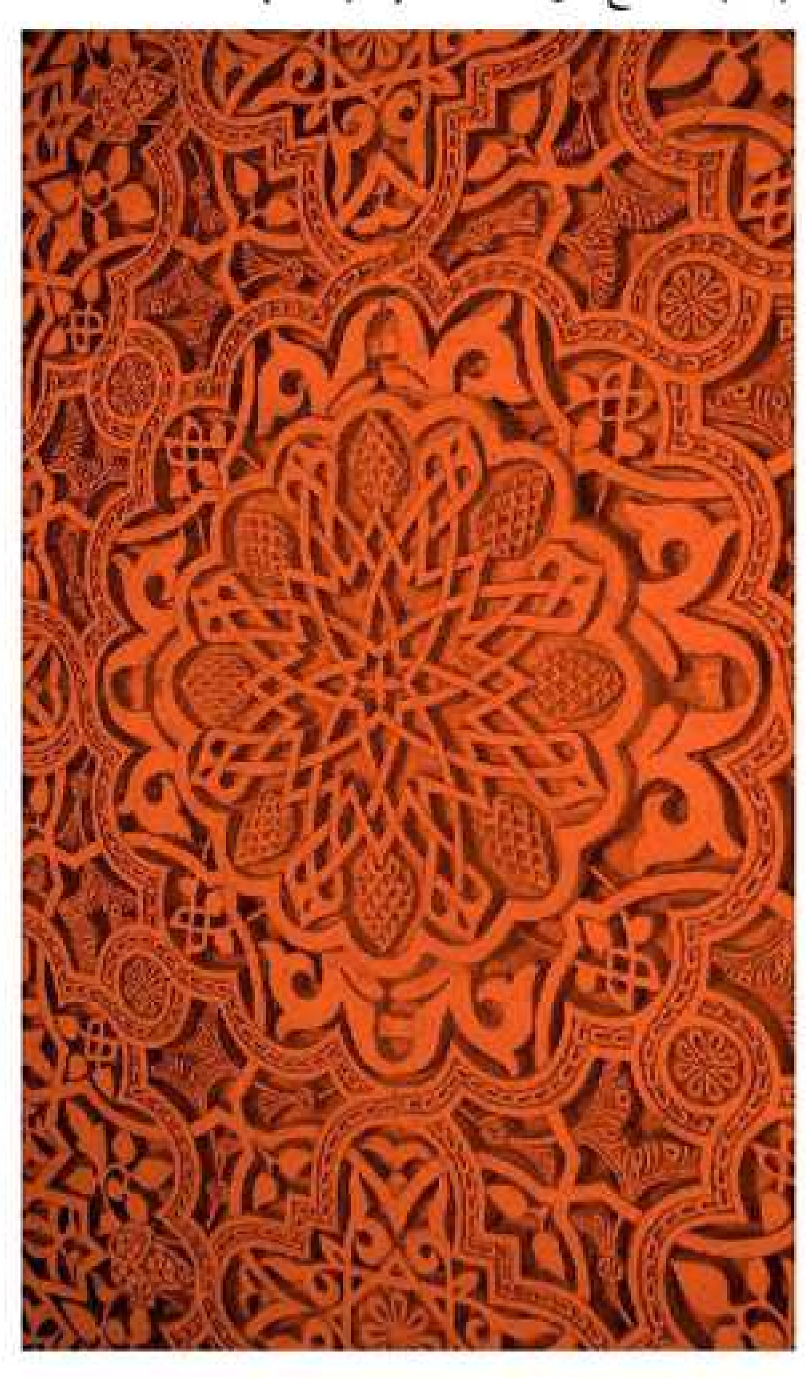
وقال ابن القيِّم:

وتأمَّل حكمته تعالى في أن جعل ملوكا للعباد وأمرائهم وولاتهم من جنس أعمالهم ، بل كأنَّ أعمالهم ظهرت في صورة ولاتهم وملوكهم ، إن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك أمكر وأخدع، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم مالهم من الحقِّ وبخلوا به عليهم ، وإن أخذوا ممَّن يستضعفون ما لا يستحقُّونه في معاملاتهم ، أخذت منهم الملوك ما لا يستحقُّونه وضربت عليهم المكوس والضَّرائب، وليست الحكمة الإلهيَّة أن يولِّي على الأشرار الفجار إلاَّ من يكون من جنسهم فحكمة الله تأبى أن يولِّي علينا في مثل هذه الأوقات مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلا عن أبي بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم ، وكل من الأمر موجب للحكمة ومقتضاها ومن له فطنة إذا سافر في هذا الباب رأى الحكمة الإلهيَّة سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء[44].



(43) «شرح العقيدة الطَّحاوية» (ص430).

(44) «مفتاح دار السَّعادة» (1/253).



قلب الإنسان



■ د/رضا بوشامة
أستاذ محاضر بجامعة الجزائر

إنَّ الله ﷻ خلق الإنسان وركَّب فيه أعضاء، ومن تلك الأعضاء عضو صغير الجرم عظيم القدر، جعل كلَّ الأعضاء تبعًا له في الصَّلاح والفساد، فقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حديث النُّعمان ابن بشير رضي الله عنه: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وهِيَ القَلْبُ**»(1).

فقلبك يا ابن آدم! أصل الصَّلاح والفساد، سهل التَّقلُّب، وما سمِّي قلبًا إلاَّ لتقلُّبه، قال أبو موسى الأشعري: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ لِتَقَلُّبِهِ، وَمَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ رِيشَةٍ فِي فَلاةٍ، أَلْجَأَتْهُ الرِّيحُ إِلَى شَجَرَةٍ، فَالرِّيحُ تَصْفِقُهَا ظَهْرًا لِبَطْنٍ**»(2).

لذا كان ﷺ يحثُّ على الاعتناء به أشدَّ العناية، ومن ذلك دعاء الله له بالثَّبات والهداية، فقد كان أكثر دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فقيل له في ذلك؟ فقال: «**إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»(3).

وفي «صحيح مسلم» (2654) عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

فمَن صرف قلبه على طاعته وثبت فيه إيمانه فهو قلب حيٌّ سليم، ومن أزاغه كان قلبه ميِّتًا، وبين هذا وذاك القلب المريض.

■ فالقلوب ثلاثة:

□ قلب حيٌّ سليم:

حيٌّ بالإيمان والعمل الصَّالح، سليم من كلِّ شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كلِّ شبهة تعارض خبره.

خلصت عبوديَّته لله تعالى: إرادةً ومحبَّةً، وتوكُّلاً، وإنابةً، وخشيةً، ورجاءً.

وخلص عمله لله، إن أحبَّ أحبَّ لله وإن أبغض أبغض لله، وإن أعطى أعطى لله وإن منع منع الله، فهو بالله ولله.

وهو القلب الَّذي ينفع صاحبه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

□ والقلب الثَّاني:

ضدُّ هذا، وهو القلب الميِّت الَّذي لا حياة فيه، لا يعرف ربَّه، ولا يعبده، بل هو عبد لشهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربِّه وغضبه، إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، فالهوى إمامه، والشَّهوة قائده، والجهل سائقه، وهو قلب الكافر والمنافق.

طبع الله على قلبه وأقفل عليها فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

□ والقلب الثَّالث:

قلب له حياة وبه علَّة؛ دائرٌ بين الحياة والموت، تجذبه هذه تارةً وهذا أخرى، تُمدُّه مادَّتان: مادَّة إيمان، ومادَّة نفاق؛ فهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبَّة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له ما هو مادَّة حياته، وفيه من محبَّة الشَّهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب؛ وغير ذلك من الآفات: ما هو مادَّة هلاكه وعطبه، داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدَّار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى الدُّنيا وزخارفها، فيلقي عليه من الشَّهوات والشُّبهات ما يجعله إمَّا لاحقًا بالقلب الميِّت القاسي، وإمَّا مجاهدًا هواه والشَّيطان فيلحق بالقلب الحيِّ السَّليم.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً

(1) البخاري (52) ومسلم (1099).
(2) «الزُّهد» لابن المبارك (358).
(3) التِّرمذي (3622).

﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سُورَةُ الحَجّ][4].

وهذه الفتن من الشَّهوات والشُّبهات المعروضة على القلوب هي سبب اعتلالها وسقمها، فهي فتن الغي والضَّلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل.

روى مسلم في «صحيحه» (144) عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فقال: أيُّكم سمع رسولَ الله ﷺ يَذكرُ الفتنَ؟ فقال قَوْمٌ: نحن سمعناه، فقال: لعلَّكم تعنون فتنة الرَّجُل في أهله وجاره؟ قالوا: أجلْ، قال: تلك تُكفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيَامُ والصَّدَقَةُ، ولكنْ أيُّكم سمع النَّبيَّ ﷺ يذكر الَّتي تموجُ مَوْجَ البَحر؟ قال حذيفة: فأسْكَتَ القومُ، فقلت: أنا، قال: أنتَ للَّه أبُوكَ؟ قال حذيفة: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**».

أي أَنَّ فتن الشَّهوات والشُّبهات لا تزال تَظْهَرُ عَلَى الْقُلُوبِ فِتْنَةٌ بَعْدَ أُخْرَى، كَمَا يُنْسَجُ الْحَصِيرُ عُودًا عُودًا، فإذا خالطت القلب أُشْرِبَ حُبَّها فدَخَلَتْ فيه دُخُولاً تامًّا، وَلَزِمَهَا لُزُومًا كاملاً، وَحَلَّتْ مِنْهُ مَحَلَّ الشَّرَابِ فِي نُفُوذِ الْمَسَامِّ وَتَنْفِيذِ الْمَرَامِ، فأثَّرتْ فيه، وأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا وَرَدَّ الْفِتَنَ وَامْتَنَعَ مِنْ قَبُولِهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ فأُثْبِتَتْ وَدَامَتْ وَاسْتَمَرَّتْ فتَصِيرُ القُلُوبُ صِنْفَيْنِ:

أَحَدُهُمَا أَبْيَضُ مِثْلُ الصَّفَا وهو الحَجَر المَرْمَر الأَمْلَس مِنْ غَايَةِ البَيَاضِ والصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ وَظُلْمَةٌ وَبَلِيَّةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؛ لأَنَّها قُلُوبٌ صَافِيَةٌ قَد أَنكَرَت تلكَ الفتنَ في ذلك الزَّمَنِ، فَحُفظَت إِلَى يَوْمِ القِيَامَة، وقلبٌ يصير أَسْوَدَ مِرْبَادًّا لونه لَوْنُ الرَّمَادِ، من كثرة ما نقط فيه من السَّواد، كالكأس المَائل المَنْكُوس، فهو خَال من الإيمان والعلم واليقين لا يَثْبُتُ فيه شَيْءٌ وَلا يَستَقِرُّ، فلا يَبْقَى فيه عِرْفَانُ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ، ولا إِنْكَارُ مَا هُوَ مُنْكَرٌ، إلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهِ وشهواته، فَيَتْبَعُهُ مِنْ غَيْرِ أن يدرك كونه مَعْرُوفًا أَوْ مُنْكَرًا شَرْعًا.

فإذا عُلم أنَّ فساد القلوب بما يعرض لها من الفتن، وأنَّ فساده فساد لجميع أعضاء الإنسان، فإنَّ الفتن كثيرة تعرض على القلوب، وهي فتن الشَّهوات والشُّبهات، فتن الغيِّ والضَّلال، فتن المعاصي والشِّركيَّات، وكلُّها تعمل في القلب عملها من التَّخريب والإفساد.

وما أصاب الأمَّة من الشُّرور والضَّلال؛ إلاَّ بسبب أمراض القلوب وعللها، وما عمَّ البلاد من الشِّرك وعبادة غير الله من الأوثان والأحجار والقبور ودعائها والاستغاثة بها والذَّبح لها إلاَّ بسبب أسقام القلوب، وما انتشرت البدع والخرافات في الأمَّة في جميع أعمالها وتقرُّباتها إلاَّ بسبب علل القلوب، الَّتي أصبحت بؤرًا للأهواء، وما عمَّت المنكرات في الأفعال والأخلاق والأقوال، وكثرة الجرائم، كالقتل والزِّنا والسَّرقة والتَّعامل بالرِّبا، وسائر المحرَّمات؛ إلاَّ بسبب إقفار القلوب من طاعة الله، وفتنتها بحبِّ الدُّنيا العاجلة وترك النَّظر في الآخرة.

وما أُصيب كثير من النَّاس بأمراض النُّفوس والقلوب من القلق والوسوسة والهمِّ والغمِّ إلاَّ من المعاصي النَّاتجة عن أمراض القلوب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والذُّنوب للقلب بمنزلة السُّموم، إن لم تهلكْهُ أضعفته ولا بدَّ، وإذا ضعفت قوَّته لم يقدر على مقاومة الأمراض، قال طبيبُ القلوب عبدُ الله بن المُبارك:

رأيتُ الذُّنوبَ تميت القلوب
وقد يورث الذُّلَّ إدمانها
وترك الذُّنوب حياة القلوب
وخيرٌ لنفسك عصيانُها[5]

فمن أراد عَافية القلب فلْيَترك الآثام.

ذنوبُك يا مغرورُ تُحصى وتحسب
وتُجمع في لوح حفيظ وتُكتب
وقلبُك في سهو ولهو وغفلة
وأنت على الدُّنيا حريصٌ مُعذَّبُ
تُباهي بجَمع المال من غير حلِّه
وتَسعى حثيثًا في المَعاصي وتُذنبُ

فاعمل على إصلاح قلبك، فصلاحُه صلاحٌ لجميع أعضائك، وصلاحه لا يكون إلاَّ بالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وتوحيده واتِّباع نبيِّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، ومعرفة خالقك وحبِّه والتَّقرُّب إليه بالطَّاعات، وهذا لا يكون إلاَّ بتدبُّر كتاب الله والعلم بأحكامه والعمل به ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سُورَةُ يُونُس].

■ ■ ■

(4) انظر «إغاثة اللَّهفان» (7/1).

(5) «زاد المعاد» (203/4).



■ **ومن أسباب حياة القلوب: العلم بالكتاب والسُّنَّة؛** فإنَّ من علم شرع الله عصم الله قلبه من الفتن الَّتي تعرض عليه فيعرف المعروف وينكر المنكر، كما جاء في الحديث المتقدِّم: «**وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، فيصير أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**».

وعن أبي موسى، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْث الكَثِير أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقيَّةٌ، قَبِلَت المَاءَ، فَأَنْبَتَت الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَت المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائفَةً أُخْرَى، إنَّمَا هيَ قيعَانٌ لاَ تُمْسكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَني اللهُ به فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذَلكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذي أُرْسِلْتُ به**»[6].

فشبَّه ﷺ العلم الَّذي جاء به بالغيث؛ لأنَّ كلاًّ منهما سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان والعلم سبب حياة القلوب.

(6) البخاري (79). ومسلم (2282).

■ **ومن أسباب حياة القلوب وصلاحها الإقبال على الله وتلاوة كتابه وتدبُّره والاشتغال بذكره،** فذكر الله هو قوت هذه القلوب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [سورة الرعد].

فالذِّكر يجلبُ لقلب الذَّاكر الفرحَ والسرورَ والرَّاحةَ، ويورثُ القلبَ السُّكونَ والطُّمأنينةَ ويزول ما فيها من قلقٍ واضطراب وهموم وغموم.

فلا حياةَ للقلب إلاَّ بذكر الله، فهو للقلب مثلُ الماء للسَّمك، فكيف يكون حالُ السَّمك إذا فارق الماء.

وفي «الصَّحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَثَل الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذي لاَ يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيِّ والميِّت**»، ولفظ مسلم: «**مَثَلُ البَيْت الَّذي يُذْكَرُ اللهُ فيه والبَيْت الَّذي لاَ يُذْكَرُ اللهُ فيه مَثَلُ الحَيِّ والميِّت**»[7].

فالقلب الذَّاكر كالحيِّ في بيوت الأحياء، والقلب الغافل كالميِّت في بيوت الأموات، وعلى هذا فإنَّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، ولهذا قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم
وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشة من جسومهم
وليس لهم حتَّى النُّشور نشور

(7) البخاري (6407) ومسلم (779).

■ **ومن أسباب حياة القلوب النَّظر فيما آلت إليه الأمم الَّتي قبلنا والنَّظر في عواقب الظَّلَمَة والمفسدين وما يَحُلُّ بهم من العقوبات الإلهيَّة،** قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج].

فأصحاب الألباب السَّليمة يأخذون العبر ممَّا يرونه ويشاهدونه من عقاب الله وشدَّة بطشه وانتقامه من أعدائه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [سورة يوسف].

نسأل الله أن يصلح قلوبنا ويستعملها في طاعته وذكره وشكره، اللَّهمَّ يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك، ويا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك.





فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم الاقتصار على صوم التَّاسع من المحرَّم

■ **السُّؤال:**

هناك من يرى أنَّ عاشوراء هو اليومُ التَّاسع من المحرَّم، وذلك استنادًا إلى الحديث الَّذي رواه مسلمٌ (1133) عن الحكَم بن الأعرج قال: انْتَهَيْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ رِدَاءَهُ فِي زَمْزَمَ فَقُلْتُ لَهُ: «أَخْبِرْنِي عَنْ صَوْمِ عَاشُورَاءَ»، فَقَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ هِلَالَ الْمُحَرَّمِ فَاعْدُدْ، وَأَصْبِحْ يَوْمَ التَّاسِعِ صَائِمًا»، قُلْتُ: هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فما توجيهكم لهذا الحديث بارك الله فيكم؟

■ **الجواب:**

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فمذهب جماهير العلماء من السَّلف والخلف أنَّ عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرَّم[1]، وهو مقتضى الاشتقاق والتَّسمية، ويشهد له التَّصريحُ الوارد في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَوْمِ عَاشُورَاءَ يَوْمُ عَاشِرٍ»[2]، وعنه رضي الله عنهما أنَّه كان يقول: «خَالِفُوا اليَهُودَ، صُومُوا التَّاسِعَ وَالعَاشِرَ»[3]، كما يدلُّ عليه ظواهرُ الأحاديث الواردة في بيان حُكم صيام عاشوراء وفضله، وهو الرَّاجح.

ومن رأى أنَّ عاشوراء هو اليوم التَّاسع فقد أشكل عليه قولُ ابن عبَّاس رضي الله عنهما المذكور في السُّؤال، والَّذي ظاهرُه أنَّ يوم عاشوراء هو اليوم التَّاسع، وقد أجاب عن هذا الإشكال ابنُ حجر رحمه الله بقوله: «قال الزَّين بن المنَيِّر: قولُه: «إِذَا أَصْبَحْتَ مِنْ تَاسِعِهِ فَأَصْبِحْ»[4] يُشعر بأنَّه أراد العاشرَ لأنَّه لا يصبح صائمًا بعد أن أصبح من تاسعه إلاَّ إذا نوى الصَّومَ من اللَّيلة المقبلة وهو اللَّيلة العاشرة، قلت [ابن حجر]: ويقوِّي هذا الاحتمالَ ما رواه مسلمٌ - أيضًا - من وجه آخر عن ابن عبَّاس أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ» فمات قبل ذلك»[5]، فإنَّه ظاهرٌ في أنه ﷺ كان يصوم العاشرَ، وهمَّ بصوم التَّاسع فمات قبل ذلك، ثمَّ ما همَّ به من صوم التَّاسع يَحتمل معناه: أنَّه لا يَقتصر عليه بل يضيفه إلى اليوم العاشر: إمَّا احتياطًا له[6]، وإمَّا مخالفةً لليهود والنَّصارى وهو الأرجح، وبه يُشعر بعضُ روايات مسلم»[7].

وعليه يتبيَّن - بوضوح - أنَّ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما لم يجعل عاشوراء هو اليومَ التَّاسع، وإنَّما أرشد السَّائلَ إلى صيام التَّاسع مع العاشر، وهو ما يدلُّ عليه مجموعُ أحاديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما، ويعكس صحَّةَ هذا الفهم ما ذكره ابنُ القيِّم رحمه الله في مَعْرِض توضيح أنَّ آثارَ ابن عبَّاس رضي الله عنهما تتَّفق ولا تختلف، بل يصدِّق بعضُها بعضًا حيث قال رحمه الله: «فمن تأمَّل مجموعَ روايات ابن عبَّاسٍ تبيَّن له زوالُ الإشكال وسَعَةُ علم ابن

(1) انظر: «شرح النَّووي على مسلم» (8/12).

(2) أخرجه التِّرمذي (755)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرمذي» (1/399)، وأخرجه البزَّار (1/492) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحَّحه ابن حجر [انظر: «الضَّعيفة» (8/311)].

(3) أخرجه البيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» (4/287)، وصحَّحه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة» (177).

(4) أخرجه الطَّحاوي في «شرح معاني الآثار» (3287).

(5) أخرجه مسلمٌ (1134).

(6) والمراد بالاحتياط - في هذا المقام - ما نقله ابن القيِّم رحمه الله في «زاد المعاد» (2/76) عن بعض أهل العلم من قوله: «قد ظهر أنَّ القصد مخالفةُ أهل الكتاب في هذه العبادة مع الإتيان بها، وذلك يحصل بأحد أمرين: إمَّا بنقل العاشر إلى التَّاسع، أو بصيامهما معًا. وقوله: «إِذَا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ صُمْنَا التَّاسِعَ» يحتمل الأمرين. فتوفِّي رسول الله ﷺ قبل أن يتبيَّن لنا مرادُه، فكان الاحتياط صيامَ اليومين معًا».

(7) «فتح الباري» لابن حجر (4/245).

عبَّاس، فإنَّه لم يجعل عاشوراءَ هو اليومَ التَّاسعَ، بل قال للسَّائل: صُم اليومَ التَّاسع، واكتفى بمعرفة السَّائلَ أنَّ يوم عاشوراء هو اليوم العاشر الَّذي يعدُّه النَّاسُ كلُّهم يومَ عاشوراء، فأرشد السَّائلَ إلى صيام التَّاسع معه، وأخبر أنَّ رسول الله ﷺ كان يصومه كذلك؛ فإمَّا أنْ يكون فعْلُ ذلك هو الأَوْلى، وإمَّا أن يكون حملُ فعله على الأمر به وعزمه عليه في المستقبل، ويدلُّ على ذلك أنَّه هو الَّذي روى: «صُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ وَيَوْمًا بَعْدَهُ»[8]، وهو الَّذي روى: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ يَوْمِ العَاشِرِ»[9]، وكلُّ هذه الآثار عنه يصدِّق بعضُها بعضًا ويؤيِّد بعضُها بعضًا»[10].

لذلك كان من الخطإ البيِّن الاقتصارُ على صيام يوم التَّاسع فقط، إذ الواجب دفعُ التَّعارض وحملُ كلام ابن عبَّاس رضي الله عنهما على التَّوافق ـ كما تقدَّم ـ، وذلك بفقه ألفاظ الأحاديث ومعرفة طُرُقها، قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «وأمَّا إفرادُ التَّاسع فمن نقص فهم الآثار وعدم تتبُّع ألفاظها وطُرُقها، وهو بعيدٌ من اللُّغة والشَّرع، والله الموفِّق للصَّواب»[11].

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

❁❁❁

(8) أخرجه أحمد (2154) بلفظ: «صُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا أَوْ بَعْدَهُ يَوْمًا»، قال الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (9/ 288): «وذِكرُ اليوم الَّذي بعده منكرٌ فيه».

(9) تقدَّم تخريجه.

(10) «زاد المعاد» لابن القيِّم (2/75).

(11) المصدر السَّابق (2/76).



في وجوب الصوم والإفطار مع الجماعة

■ السُّؤال:

قام بعض النّاس بالإفطار قبل الأذان بحجة أنّ الأذان لا يرفع في الوقت الشرعي، فهل هذا الفعل جائز؟

■ الجواب:

يفرّق ما بين صوم رمضان وهو الصوم الجماعي وغيره من الصوم الواجب في غير الجماعة والمستحبّ التطوعي الفردي، أمّا الصيام المفروض الذي يكون جماعة فينبغي عليه أن يصوم ويفطر مع جماعة النّاس وإمامهم لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَالفِطْرُ يَوْمَ تفْطِرُونَ، وَالأَضْحَى يَوْمَ تُضَحُّونَ»[12] فصرَّح بوجوب أن يكون الصوم والإفطار والأضحية مع الجماعة وعظم النّاس، سواء في ثبوت رمضان أو العيد أو في غروب الشمس أو طلوع الفجر فيجب على الآحاد اتباع الإمام والجماعة فيها ولا يجوز لهم التفرد فيها جمعًا للأمة وتوحيدًا لصفوفها وإبعادًا للآراء الفردية المفرقة لها فإن يد الله مع الجماعة.

أمّا صيام الواجب والتطوّع الفردي فيوكل كلّ بحسب دخول وقت المغرب أو وقت طلوع الفجر عملا بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187] ولقوله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا وَغَرَبَت الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»[13] وفي ذلك أحاديث أخرى.

والعلم عند الله وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين وسلم تسليما.

❁❁❁

(12) أخرجه الترمذي (697)، والدارقطني (2205)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (905).

(13) أخرجه البخاري (1954)، ومسلم (2612)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.



موقف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله من الصوفية

■ حسن أيت علجت

إنَّ التَّصنيفَ في الرَّدِّ على أهل الأهواء بابٌ عظيمٌ من أبواب النُّصح للأُمَّة، وصيَانَتِهَا ممَّا يَشُوبُها في دينِهَا، وتَعَبُّدِها، وسُلُوكِها، وتَوحيدِها لرَبِّها.

بَيْدَ أنَّه لا يَنْبَغِي أن يَلِجَ هذا البَابَ الجِهاديَّ؛ إلاَّ مَنْ أَتْبَعَ في العِلْمِ سَبَبا، وطابَ مَسْلَكًا ومَشْرَبا.[1]

وممَّنْ اتَّصَفَ بهذا الوَصْفِ الأنِيق، وتَحَقَّقَ فيه هذا الشَّرطُ الوَثِيق، فقام بهذا الواجب الشَّرعيِّ خَيرَ قِيَام: شيخُ علماء الجزائر الأستاذ محمدالبشير الإبراهيمي رحمه الله؛ إذ انْبَرَى لأَهلِ الباطل - بكتَاباته المُفيدة - ورمَاهم بشهَابِ السُّنَّة الثَّاقب، وأرشَدَ المسلمين إلى طريق الحَقِّ اللاَّحِب.

وإنَّ المتَأمِّلَ فيما رَقَمَهُ الشيخ رحمه الله، يَجِدُ أنَّ أكثرَ الطَّوائف التي نالَتْهَا سِهَامُ نَقْدِه، هي طائفة الصُّوفيَّة التي كان لها - في عَهْدِه - انتشارٌ كبير في القُطرِ الجزائري، وكانت لشُيوخها حُظْوَةٌ عند سُلُطَات الاحتلالِ الفرنسي، وكُلُّ هذا لم يَمْنَعْهُ مِنْ بَيَان الأُمور التي يَعيبُها عليهم، فكان له في الردِّ عليهم مواقِفُ محمودة، وفي بيان مُخَالَفَاتِهم مقالاتٌ بالهُدَى مَعقُودَة، ميَّزَ فيها الحقَّ من الباطل والحَاليَ من العَاطِل.

ونستعرض فيما يلي جُمْلَةً من أقواله في الصُّوفية ومواقفه منها:

موقفه من هذه التّسمية

لقد دَعَا الشيخ الإبراهيمي رحمه الله المسلمين بكُلِّ حَزم وعَزم إلى الخُلُوص من النِّسبَة إلى لَقَبِ «الصُّوفية» الذي لم يُسَمِّ اللهُ عز وجل به عبَادَه، ولا رسولُه صلى الله عليه وسلم، والاستغنَاءِ بالألقاب الشَّرعية الوَارِدَة في الكتاب والسنَّة عن الألقاب المُحدَثَة الوَارِدَة من الكُفَّار، فيقول: «ثُمَّ ما هذا التصوُّف الذي لا عهدَ للإسلام الفطْرِيِّ النَّقيِّ به؟! إنَّنا لا نُقِرُّه مَظْهَرًا من مظاهر الدِّين، أو مَرتبةً عُليَا من مَرَاتبه، ولا نَعترفُ من أسمَاء هذه المراتب إلاَّ بما في القاموس الدِّيني: النُّبوَّة والصِّدِّيقيَّة والصُّحبَة والاتِّبَاع، ثم التَّقوى التي يتفاضَلُ بهَا المؤمنون، ثُمَّ الوَلاية التي هي أثَرُ التَّقوى».

إلى أنْ قال: «وهل ضَاقَتْ بنَا الألفاظُ الدِّينيَّة ذاتُ المفْهُوم الواضح، والدِّقَّة العجيبة في تحديد المعاني؛ حتَّى نَستَعِيرَ من جَرَامقَة اليونان أو جَرَامقَة الفُرس هذه اللَّفظَةَ المُبْهَمَة الغَامِضَة، التي يتَّسِعُ معناها لكُلِّ خَير ولكُلِّ شَرٍّ؟!»[2].

ويَرَى الشَّيخ الإبراهيمي رحمه الله أنَّ الانتسابَ إلى إحدَى الطُّرق الصوفية، والتَّسمِّي بهَا؛ يَتَضمَّنُ ثلاثة مَحَاذير:

الأول: أنْ يَعتَقِدَ صَاحبُ هذه النِّسبَة أنَّها أَشرفُ من الانتساب إلى الاسم الذي سَمَّانا اللهُ عز وجل به ورسولُه صلى الله عليه وسلم وهو «المسلمون»، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: 78]، أي أنَّ الله عز وجل هو الذي سمَّاكم بالمسلمين في هذا القرآن ومن قَبْلِ هذا القرآن[3].

وفي حديث الحَارث الأشْعَري رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «فَادْعُوا المُسْلمينَ بِأَسْمَائِهِمْ، بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ عز وجل: المُسْلِمِينَ، المُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ عز وجل».[4]

وفي هذا يقول الشيخ رحمه الله مُخاطبًا أتباع الطَّريقة التِّيجانية: «إنَّ العاقل لا يَنتَحِلُ نسبةً أو وَصْفًا؛ إلاَّ إذا اعتقَدَ أنَّه يَكتسِبُ بذلك شَرَفًا لم يَكُنْ له، وأنتُم قَبْلَ أنْ تكونوا تيجانيِّين؛ كُنتُم مسلمين، أَفَلَم يَكْفِكُمْ شَرَفُ الإسلام حتَّى التَمستُم ما يُكَمِّلُه من هذه النِّسَب المُفَرِّقَة؟! أَمْ أنَّ الإسلامَ - في نَظَرِكُم - قَاصِرٌ عَنْ أَنْ

(1) من كلام الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في تقريظه لكتاب «كُتُبٌ حَذَّرَ منها العلماء» للشيخ مشهور سلمان مع تحوير طفيف.

(2) «آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي» (1/175).

(3) وهو القول الذي رجَّحه الإمام الطبري من أحد القَولَيْن في هذه الآية، وصَوَّبه الإمام ابن كثير في ذلك. انظر: «تفسير ابن كثير» (5/455).

(4) رواه أحمد (17170) واللفظ له، والترمذي (2863)، وصحَّحه العلاَّمة الألباني.

يَصِلَ بأهله إلى درجات الشَّرَف الرَّفيعة، فجِئتُم تَلتَمِسون الشَّرفَ والرِّفْعَةَ في غيره؟!»[5].

المحذُور الثَّاني: أنَّ هذه النِّسَبَ المُختَرَعَةَ عُنوانٌ للفُرقَة والتَّحزُّب، وعبَّر الشَّيخ الإبراهيمي رحمه الله عن ذلك بقوله ـ في ما سبَقَ من كلامه ـ: «هذه النِّسَب المُفَرِّقَة».

المحذور الثالث: أنْ يَعتَقِدَ أصحابُ هذه النِّسبَة أنَّهم أرفَعُ قَدرًا من العَاطلين منها، ومن العاطلين منها سَادَاتُ أَولياءِ الله من الصحابة رضي الله عنهم، وفي هذا قال الشيخ رحمه الله تَتِمَّةً لكلامه الآنف الذِّكْر: «فاحذَروا؛ فإنَّ من النَّتَائج اللاَّزمة لصَنيعكُم هذا نتيجةٌ قَبيحةٌ جدًّا في حُكْم الشَّرع، وفي حُكْم العَقل، وهي أنَّ أصحابَ هذه النِّسَب يعتقدون أنَّهم أرفَعُ قَدرًا من العَاطِلِين منها، ومن العاطلين منها: أبوبكر وعمر وجميعُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم».

موقفه من الصَّالحين المنسوبين إلى التَّصوُّف

يُقرُّ الشَّيخ رحمه الله بوجُود رجَالٍ صالحين وأئمَّة مَرضيِّين ـ عبر التَّاريخ الإسلامي ـ مَنْسُوبين إلى التصوُّف؛ إلاَّ أنَّه يُصرُّ على تَسميَتِهم باسم شَرعيٍّ قُرآني ألا وهو «صَالحُو المؤمنين»؛ استنادًا إلى قَول الله عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [سورة التحريم]، ويعتقد أنَّ صلاحَهم هذا كان نَتيجةَ اتِّبَاعهم للكتاب والسُّنَّة، والعَمَلِ بهما، ولم يَكُنْ نتيجةَ التَّربية الصُّوفيَّة، وانتهاجِ مَسْلَك التَّصوُّف، وفي هذا يقول الشيخ رحمه الله:

«ونحن نعلمُ من طريق التاريخ ـ لا من طريق الشُّهرة العامَّة ـ أنَّ بعض أصحاب هذه الأسماء الدَّائرة في عالَم التصوُّف والطُّرُق، كانوا على استقَامة شَرعيَّة، وعَمَلٍ بالسُّنَّة، ووقُوف عند حُدود الله، فهم صالحون بالمعنى الشَّرعي، ولكنَّ الصَّلاحَ لم يَأْتِهم من التَّصوُّف أو الطُّرق؛ وإنَّما هو نتيجة التَّديُّن، وفي مثل هؤلاء الصَّالحين الشَّرعيين إنَّما نختلف في الأسماء؛ فنحن نُسمِّيهم صالحي المؤمنين، وهم يُسَمُّونهم صوفيَّة وأصحاب طُرُق؛ فيا ويلهم! إنَّ طريقةَ الإسلام واحدةٌ، فما حاجةُ المسلمين إلى طُرُقٍ كثيرة؟!»[6].

عرضُ الشَّيخ رحمه الله لنشأة التَّصوُّف وتطوُّره

لقد تحدَّث الشيخ الإبراهيمي رحمه الله بإسهَاب عن نَشأة الفكر الصُّوفي، وتطوُّره، والمراحل التي مرَّ بهَا، والأصول التي بُنِيَ عليها، ومدى اصطِبَاغه ببعض الدِّيانات المحرَّفة والحضارات البَائدَة، فإلى تفصيل ذلك:

أولا ـ نشأة التصوُّف

يرى الشيخ رحمه الله أنَّ الصُّوفيَّة نَزْعَةٌ مُستَحدَثَةٌ في الإسلام، وأنَّ زمنَ ابتداعها هو النِّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، ومكان ظهورها هو بغداد عاصمة الخلافة العبَّاسية، وفي هذا يقول: «والصوفية، أو الطُّرُقيَّة ـ كما نُسمِّيها نحن في مَواقفنا معها ـ هي نَزْعَةٌ مُستحدَثَةٌ في الإسلام، لا تَخْلُو من بُذُورٍ فارسيَّة قديمة، بِمَا أنَّ نشأةَ هذه النَّزعة كانت ببغداد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، واصطباغُ بغدادَ بالألوان الفارسيَّة في الدِّين والدُّنيا معروف، وتدسُّسُ بعض المتطعِّين من الفُرس إلى مَكَامِنِ العقائد الإسلامية لإفسادها، لا يَقِلُّ عن تَدَسُّس بعضهم إلى مَجَامع السياسة، وبعضهم إلى فضائل المجتمع وآدابها لإفسادها»[7].

أمَّا سبب ظهور التصوُّف ـ في نظر الشيخ رحمه الله ـ، فهو غُلُوُّ طائفة من المسلمين في التعبُّد؛ حيث قال: «وغَلَتْ طوائفُ منهم (أي: من المسلمين) في التَّعبُّد، فنجَمَتْ ناجِمَةُ التَّصوُّف والاستغْرَاق»[8].

ثانيا: تأثُّر الصُّوفيَّة ببعض الدِّيانات المحرَّفة والحضارات البَائدَة

يرى الشيخ رحمه الله أنَّ لبعض الحضارات القديمة ـ كالحضارة الفارسية ـ، والدِّيانات المحَرَّفَة ـ كالنَّصرانية ـ، والدِّيانات الوَثَنيَّة ـ كالبَرَهَميَّة ـ تأثيرًا بالغًا في نشأة الفكر الصُّوفي، ويتجلَّى هذا مَليًّا في بعض المظاهر المشتركة بينها وبين التصوُّف، وقد مرَّ بنا قول الشيخ رحمه الله إنَّ الصوفية «لا تَخْلُو من بُذُورٍ فارسيَّة قديمة».

وقال الشيخ ـ أيضا ـ في هذا الصَّدَد: «وأمَّا المذاهب الصُّوفيَّة فهي أَبْعَدُ أثَرًا في تَشْويه حقائق الدِّين، وأشدُّ مُنَافاةً لرُوحه، وأَقْوَى تأثيرًا في تَفْريق كلمة المسلمين؛ لأنَّها ترجع في أصلها إلى نَزْعَة غامضة مُبْهَمَة، تستَّرت في أوَّل أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرُّد من الأسباب، والعُزُوف عن اللَّذَّات الجسديَّة، والتَّظاهُر بالخصوصيَّة، وكانت تأْخُذُ مُنْتَحِليهَا بشيءٍ من مظاهر المسيحيَّة، وهو: التَّسليم المُطْلَق، وشيءٍ من مظَاهر البَرَهَميَّة وهو: تعذيبُ

(5) «آثاره» (2/403).

(6) «آثاره» (1/174ـ175).

(7) «آثاره» (5/141ـ142).

(8) «آثاره» (4/ 227).

الجسد وإرهاقُه؛ تَوَصُّلاً إلى كمال الرُّوح ـ زعموا ـ، وأين هذا كلُّه من رُوح الإسلام وهَديِ الإسلام؟!»[9].

ثالثا ـ أطوار التصوف ومراحله:

يرى الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أنَّ بدعة التصوُّف ـ مثل كلِّ بدعة أُحدِثَت في هذه الأمَّة ـ كان أوَّلُها صغيرا يُشْبِهُ الحقَّ، ثُمَّ عَظُمَت، وصارت دِينًا يُدانُ بهَا، ويُستَنْتَجُ من كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الصُّوفيَّة مرَّتْ بثلاث مراحل:

الأولى ـ مرحلة التَّأسيس:

وهي تتميَّز بالبَسَاطة، وتَنحَصرُ في الاجتهاد في العبادة، وشيءٍ من الرَّهبانية والتبتُّل، وكفِّ النَّفس عن الشَّهوات، وتربية الأَتْبَاع على ذلك، ومرَّ بنا قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «تستَّرت [الصُّوفيَّة] في أوَّل أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرُّد من الأسباب، والعُزُوف عن اللَّذَّات الجسديَّة، والتَّظاهر بالخُصُوصيَّة».

ويقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ـ أيضا ـ: «وكانت [أي: الصوفيَّة] في أوَّل ظهورها بسيطةً تنحصر في الخلْوَة للعبَادة، أو الجلوس لإرشَاد وتَربية مَن يَشْهَدُ مَجَالسهُم».

إلى أن قال: «ومَبْنَى هذه النِّحلَة ـ في ظاهر أَمرهَا ـ [على] التَّبتُّل والانقطاع للعبادات التي جاء بهَا الإسلام، ومجاهدة النفس ـ من طريق الرِّيَاضَة ـ بفَطْمها عن الشَّهوات، حتَّى تَصفُوَ الرُّوح، وتَشفَّ وتَرقَّ وتتأهَّلَ لمُشَارَفَة المَلإِ الأعلى، وتكونَ بمَقْرُبَة منْ أُفُق النُّبُوَّة، وتتذَوَّقَ لَذَّةَ العبادَة الرُّوحيَّة»[10].

ويرى الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الصوفيَّة مُذْ نَشأتها كان المنتسبون إليها طَرَائقَ قِدَدا، وذهبوا مذَاهبَ عَدَدا؛ بَيْنَ غَالٍ ومُقتَصِد، وقَريب من الحقِّ ومُبْتَعِد، وفي هذا يقول الشيخ عَقِبَ كَلامه السَّابق: «وقد افتَرقَ النَّازعُون إلى هذه النَّزعَة ـ منْ أَوَّل خُطوَة ـ فرَقًا، وذهبوا فيها مَذَاهبَ؛ من القَصْد الذي يُمَثِّلُه أبو القاسم الجُنَيْد، إلى الغُلُوِّ الذي يُمثِّلُه أبو منصور الحَلاَّج، إلى ما بَيْن هَذَيْن الطَّرَفَيْن».

الثانية ـ مرحلة التَّأصيل: وفي هذه المرحلة صار التصوُّف علْمًا مُستقلاًّ، له أُصولهُ، ومُصطلَحاتُه الخَاصَّة به، وصُنِّفَت فيه الكتب والدَّواوين، وفي هذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تتمَّةً لكلامه السَّابق: «ثُمَّ استَفْحَلَ أمرُهَا [أي: الصوفية]، فاستَحَالت علمًا مُستَقلاً يُشَكِّلُ مُعجَمًا كاملاً للاصطلاحات، ودُوِّنَتْ فيها الدواوين التي تُحَلِّل وتَشرَح، وتَصفُ الألوان البَاطنَة للنَّفْس، وتُبَيِّنُ الطَّريق الموصلَ إلى الله، والوسيلة المؤدِّيَةَ للسَّعَادة، وكَيفيَّة الخَلاص من مَضَائق هذه الطَّريق وأَوْعَارهَا».

الثالثة ـ مرحلة التَّدجيل:

وفي هذه المرحلة استحالت الصُّوفيَّة إلى نِسبَة مُجَرَّدة من جميع المعاني، ينتسب إليها كل من دبَّ ودرج، لا عن طريق التَّربية؛ ولكن عن طريق الدَّجَل والشَّعوَذَة، وخاضوا في شرح أُمور غيبيَّة، وأصبح مذهبُهم قائما على السِّرِّيَّة والتَّكتُّم، فتوافقت وتلاقَت مع الفِرَق الباطنية وغيرها من النِّحَل الفاسدة.

يقول الشيخ الإبراهيمي ـ تَتميمًا لكلامه السابق ـ في بيان هذه المرحلة: «ثم انتقلت [الصوفية] في القرون الوسطى من تلك الأعمال التي تستُرُ أصحابَها، إلى الأقوال التي تفضحُهُم، فخاضوا في شرح مُغَيَّبات...».

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ أَمِرَ أَمْرُ هذه الصُّوفيَّة، وتَقَوَّتْ على الزَّمَن، والتَقَت مع الباطنية ـ وغيرها من الجمعيات ـ التي تَبني أَمْرَها على التَّستُّر على طَبيعَةٍ دسَّاسة، وعِرْقٍ نَزَّاع، ومِزَاجٍ مُتَّحِد، واختلطت تعاليمُ هذه بتعاليم تلك، وتشابهت الاصطلاحات، وابتُلِيَ المسلمون من هذه النِّحل بدَاءٍ عُضَال.

وقد اتَّسَعَ صدرُها بعد أن تعدَّدَتْ مذاهبُها، واختلفت مشاربُها في القرون الوسطى والأخيرة من تاريخ الإسلام، فانضَوى تحت لوَائها كُلُّ ذي دخلَة سَيِّئة، وعقيدة رَديئَة، حتَّى أصبح التَّصوُّف حِيلَةَ كُلِّ مُحتَال، وحلْيَة كُلِّ دَجَّال»[11].

وقال ـ أيضا ـ: «وانتهى بهَا الأمر في القرون الأخيرة إلى نِسبَة مُجرَّدَة من جميع المعاني، ينتسب إليها ـ تَقَحُّمًا ـ كُلُّ مَنْ هبَّ ودبَّ، لا يطلبُها من طريق علم ولا تربية، ولكن من طريق الشَّعوذة والحِيلَة»[12].

رابعا: صلة التصوُّف بالاستعمار:

وصَفَ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الحال التي آلَ إليها التصوُّف في الأعصار الأخيرة، وكيف أنَّه أصبح مطيَّةً للمُحتَلِّين الكافرين؛ إذ صُنِعَ على أَعيُنِهم، وصار خَادمًا لمآربهم، فقال: «ثم تدلَّت [الصُّوفية] دَرَكَةً أخرى، فأصبحت وَسيلةَ مَعاش، ومَصْيَدَةً لابتزَاز أموال العامَّة، وانتهاكًا لأعرَاضهم، وهناك التقَتْ مع الاستعمار في طريق واحد، فتَعَارَفَا، وتَعَاهَدَا على الوَلاَء...».

إلى أن قال: «إنَّ الاستعمار الفرنسي ما رسَّتْ قواعدُه في الجزائر ـ وفي شمال أفريقيا على العموم ـ وفي أفريقيا الغربية وفي أفريقيا الوسطى؛ إلاَّ على الطُّرق

(9) «آثاره» (168/1).
(10) «آثاره» (142/5).
(11) «آثاره» (168/1).
(12) «آثاره» (142/5).

الصوفية وبواسطتها، ولقد قال قائدٌ عسكري فرنسي معروف كلمةً أحاطت بالمعنى من جميع أطرافه، قال: «إنَّ كَسْبَ شيخَ طريقةٍ صوفيَّةٍ أَنْفَعُ لنَا من تجهيز جيش كاملٍ، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لَمَا أَفادَتْنَا ما تُفيدُه تلك الكلمةُ الواحدة من الشيخ، على أنَّ الخُضُوع لقُوَّتِنَا لا تُؤْمَنُ عَوَاقِبُه؛ لأَنَّه ليس من القلب، أمَّا كلمةُ الشيخ، فإنَّها تَجْلبُ لنا القلوبَ والأبدانَ والأموالَ أيضًا»[13].

ووصف الطُّرُق الصُّوفيَّة قائلا: «هي مَطَايا الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا ووسطها وغربها، ولَولاَها لم يَتِمَّ له تَمَامٌ»[14].

(13) «آثاره» (5/142 ـ 143).
(14) «آثاره» (5/141).



موقف الشيخ الإبراهيمي من كتب الصوفية

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في بعض كتب الصوفية: «إنَّ انتشارَ هذه الدَّفَاتر في هذه الأمَّة المسلمة يَفُوقَ انتشارَ الأَوْبِئَةِ والطَّوَاعين فيها، وإنَّ الواجب على علماء هذه الأمة أَنْ يَحمُوها من تلك الكتب، كما يُحمَى المريضُ من بعض الأطعمة وبعض المياه التي تَمُدُّ المرضَ، وتَزيدُه إعضَالاً، وإنَّ أَيْسَر ما تَستَحِقُّه تلك الكُتُب هو الإحرَاق»[15].

ومن الكتب التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: كتاب «طبقات الصُّوفيَّة» لعبد الوهاب الشعراني، حيث أشار إلى بعض شيوخ الصوفية المُتَرجَمين فيه، وحقيقة حالهم، فقال: «أُصبحت هذه الكلمة ـ التي غَفَلُوا عنها ـ [أي: الصُّوفية] أُمًّا وَلُودًا تَلدُ البَرَّ والفاجر، ثُمَّ تَمَادَى بهَا الزَّمن، فأصبحت قَلعةً مُحَصَّنَةً تُؤْوِي كُلَّ فاسق، وكُلَّ زنديق، وكُلَّ مُمَخْرِق، وكُلَّ دَاعر، وكُلَّ سَاحر، وكُلَّ لصٍّ، وكُلَّ أَفَّاك أثيم، وانظر: «طبقات الشَّعراني الكبرى»، وما طُبِعَ على غِرَارِهَا من الكُتُب؛ تَجِدْ أَصنافَ المُحْتَمين بهذه القَلعة، وهم ببَرَكة حمَايَتِها طُلَقَاءُ منْ قُيُود الشَّريعة»[16].

بعض الأمور التي انتقدها الشيخ الإبراهيمي على الصوفية

انتقد الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ جُملةً من الأُمور على الصُّوفيَّة، نستعرض بعضها فيما يلي:

أوَّلا: فُشُوُّ الشِّرك وعبادَةِ الأَضرحَة فيهم.

(15) «آثاره» (1/123).
(16) «آثاره» (1/175).

وسبب ذلك غُلُوُّهم في مشايخهم، ورَفعُهُم إلى مستوى الألوهية، وفي هذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «يجري كُلُّ هذا، والأشياخ أشياخٌ: يُقَدَّسُ ميِّتُهم، وتُشَادُ عليه القِبَاب، وتُسَاقُ إليه النُّذُور، ويُتَمَرَّغُ بأَعتَابه، ويُكتَحَلُ بتُرابه، وتُلتَمَسُ منه الحاجات، وتَفيضُ عند قبره التَّوسُّلات والتَّضرُّعات، ويكونُ قبرُه فتنةً بعد الممات كما كان شخصُه فتنةً في الحياة، ثم تتوالد الفتن: فيكون اسمُه فتنة، وأولادُه فتنة، ودارُه فتنة، وإذا هو مجموع فُتُون، تَربُو عَدًّا على ما في «مجموع المتُون»[17].

ويُنكرُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ على هؤلاء الشُّيوخ إقرَارَهم لُمريديهم على هذا الغُلُوِّ المُهلك، قائلا: «وأكبرُ جَرحَة دينيَّة فيهم ـ عندي ـ، إقرارُهم لتلك الأَماديح الشعرية الملحُونة، التي كان يقولها فيهم الشعراء المُتَزَلِّفُون، ويُنشدُونَها بين أيديهم في محافلهم العامَّة، وفيها ما هو الكُفر ـ أو دُونَه الكُفر ـ منْ وَصفهم بالتصرُّف في السَّموات والأَرَضين، وقُدرَتهم على الإغْنَاء والإفقار، وإدخال الجنَّة والإنقاذ من النَّار ـ دَعْ عنك المُبَالغَات التي قد تُغتَفر ـ، كُلُّ ذلك وهم ساكتون؛ بل يُعجَبُون لذلك ويَطْرَبُون، ويُثيبون المادحَ؛ علمًا منهم أنَّ ذلك المديحَ دعايَةٌ مُثمرةٌ تَجلبُ الأَتباع، وتُدرُّ المال.

ولو كانوا على شيء من الدِّين، لَمَا رَضُوا أنْ يَسمَعُوا تلك الأَماديح، وهم يعلمون كذبَها منْ أنفُسهم، ويعلمون أنَّ فيها تضليلاً للعامَّة، وتَغريرًا بعقائدها، وأنَّ تلك الأَماديح المنشورةَ بين النَّاس ـ في وطننا هذا ـ هي سرُّ انتشار الطُّرقيَّة، وتَغَوُّلها فيه»[18].

(17) «آثاره» (1/172).
(18) «آثاره» (1/176).



وقد أفصحَ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن دعوته واصفًا لها بقوله: «ونحن مَعشَرَ الدُّعاة إلى هدَايَة الكتاب والسُّنَّة»،[19] وسمَّاها بالسَّلفيَّة التي هي الإسلام الخالص الذي لم تَشُبْهُ شَائِبَةٌ، فقال في رسالته إلى مفتي الدِّيار السعودية الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «أُذَكِّرُكُم أنَّ لَكُم بالجانب الغَربِيِّ من وطن العروبة، ومَنَابِتِ الإسلام الأولى، ومَجْرَى سَوابِقِ المجاهدين الأوَّلين لإِخْوَانًا في العُروبة وهي رَحِمٌ قَوِيَّة، وفي الإسلام وهو سَبَبٌ مَرعِيٌّ، وفي ذلك المعنى الخَاصِّ من الإسلام وهو «السَّلفيَّة» التي جَاهدتُم، وجاهدَ أسلافُكُم الأبرار في سبيل تَثْبِيتِها في أرض الله»[20] .

وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ - في كلام جميل - الفَرقَ بين دعوته هذه، وبين الصوفية، وأنَّه يتمثَّل في مَضمُون الدَّعوة التي يدعون إليها عامَّةَ المسلمين فيقول: «نريدُ لهذا العامِّي أن يؤمنَ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبالكَعبَة قِبْلَةً، وبالقرآن إمامًا، وبمحمَّد رسولا، وألَّا يَرجُوَ النَّفعَ إلاَّ من رَبِّه، ولا يَستدفِعَ الضُّرَّ إلاَّ به، وأنْ لا يستعينَ - بعدَ الأسبَاب الكَسبِيَّة - إلاَّ بِقُوَّتِه.

وتريدون منه أن يُؤمِنَ - مع ذلك، أو قبل ذلك، أو بعد ذلك - بأنَّكم أولياءُ الله وإن استَبَحتُمُ الحُرُمات، ورَكِبْتُمُ المحَرَّمَات، وأنْ يُشْرِكَكُم مع الله في الدُّعاء، أو يَدعُوكُم من دونه، وأنْ يَلتَجِئَ إِلَيكُم حتَّى فيما هو من خَصَائص الألوهيَّة، وأنْ يَشُدَّ الرِّحَال لبُيُوتكم كما يَشُدُّها لبَيت الله»[21] .

ثانيا: دعواهم الولاية لأنفسهم ولمشايخهم، وتلقيب أنفسهم «العارفين بالله»: ومنْ ثَمَّ يأمرون العوامَّ بالتَّسليم لهم، وعَدَم الاعتراض عليهم، ولو كانت أفعالُهم وأقوالهم مخالفَةً للشَّريعة في ظاهرها، وقد مرَّ بنا قَولُ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «...وتريدون منه [أي: العامِّي] أنْ يُؤمِنَ مع ذلك - أو قبل ذلك، أو بعد ذلك - بأنَّكم أولياءُ الله، وإن استَبَحتُم الحُرُمات، وركبتم المحَرَّمَات».

وقال الشيخ - أيضا -: «فالقوم عَارِفون بالله، وإنْ لم يَدخُلوا كُتَّابًا، ولم يَقرَأوا كتَابًا، وكل من يَنتَسِبُ إليهم فهو عارفٌ بالله بمجرَّد الانتساب، أو بمجرَّد اللَّحظة من شيخه»[22].

وقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مخاطبا للصُّوفية: «فَوَيْحَكُمْ! إنَّ التَّسليم من أُصُول طرائقكم فيما تزعمون؛ فهل يجب التَّسليمُ - عِندَكُمْ - للمُتَخَمِّر إذا تَخَمَّر، فَعَبِثَ بالمقامات العُليا من نَبَوِيَّة ومَلَكِيَّة وأُلُوهيَّة؟! ويجب التَّسليم عندكم للمُشعوذ إذا شعوذ، وللشَّيطان إذا استحوذ، وللمَجذوب إذا اختلَّت أعصابُه، وضاع صوابُه، وسال لُعَابُه، ولا يجب التَّسليم لكتاب الله إذا قام دليلُه، ولهَدي نَبيِّه إذا اتَّضَحَ سبيلُه؟! وهل من مُحَادَّةٍ لله ورسوله أعظم من هذه؟!»[23].

ثالثا: تفضيل بعضهم لأَورَادهم المُخترعة على تلاوة القرآن الكريم

وفي هذا الصَّدد يقول الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا كان هذا القرآن مُتَعَبَّدًا بتلاوته اللَّفظيَّة وهو ستون حزبًا، فإنَّ تلاوة إنجيل التِّيجَاني القصير وهو «صلاة الفاتح» مرَّةً واحدة تَعدِلُ ستَّةَ آلاف خَتْمَة من القرآن»[24].

رابعا: اعتمادهم على الخُرافَات والأحاديث الموضوعة

قال الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ: «هم لا يُذَكِّرون أُمَّة محمَّد ﷺ، وإذا ذَكَّروها لا يُذَكِّرونها بالقرآن، كَمَا أَمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ[25]؛ بل يُذكِّرونها بمُرَغِّبَات ومُرَهِّبات لم تَأْتِ على لِسَان صاحب الشَّريعة، ولم تتَّفِقْ مع مقاصد شريعته، يُزَهِّدُونها في العمل للآخرة بما شَرَعُوه لها من أعمالٍ بدعيَّة، ويُزَهِّدونها في العمل للدُّنيا بما يفترون على رسول الله من أحاديثَ في ذَمِّ الدُّنيا، وبما أُثِرَ عن شَوَاذِّ الصُّوفية الهَادمين لحقائق الدِّين ببِدَعِ التَّبَتُّل البدعيِّ، والانقطاع الكَاذب عن الدُّنيا»[26].

(19) «آثاره» (4/ 232).
(20) «آثاره» (5/ 221)
(21) «آثاره» (117.116/1).
(22) «آثاره» (170/1).
(23) «آثاره» (116/1).
(24) «آثاره» (171/1)، وانظر تصديق ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «جواهر المعاني» (136/1) لعلي بن حرازم الفاسي وهو من شيوخ التِّيجانيَّة.
(25) في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق].
(26) «آثاره» (4/ 116).

خامسا: استعمالهم لمصطلحات خاصَّة بهم، وهي مصطلحاتٌ لَمْ يَرِدْ بهَا كتابٌ ولا سُنَّةٌ، ولا تفوَّه بهَا صاحبٌ، وهي أشبَهُ بالطَّلاسم والرُّموز والألغاز، مع اشتمالها على مَعانٍ فاسدة، وقد مرَّ بنا آنفًا قولُ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ استَفْحَلَ أمرُها [أي: الصوفية]، فاستَحَالت علمًا مُستَقلاً يُشَكِّلُ مُعجَمًا كاملاً للاصطلاحات».

ويقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ـ أيضا ـ: «ولم يَتَبَيَّن النَّاسُ خيرَها من شَرِّها [أي: الصُّوفيَّة] لَمَا كان يَسُودُها من التَّكَتُّم والاحتراس، حتَّى جَرَت على ألسنَة بعض مُنتَحليها كلماتٌ كانت ترجمةً لبعض ما تحملُ من أوزار، فَرَابَ أئمَّةَ الدِّين أمرُها، وانفتَحَت أعيُنُ حُرَّاس الشَّريعة، فوَقَفُوا لها بالمرصاد، فَلاذَ مُنْتَحلُوها بفُروق مُبْتَدَعَة يريدون أَنْ يُثْبِتُوا بهَا خُصُوصِيَّتَهُم كالظَّاهر والباطن، والحقيقة والشريعة...إلى ألفاظ أخرى من هذا القَبيل، لا تخرجُ في فَحوَاهَا عن جَعْل الدِّين الواحد دينَيْن»[27].

طريقة التّعامل مع الصّوفيّة في نَظر الشّيخ

يرى الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أنَّه يَتَعيَّن عرضُ عقائد وأفكار الصُّوفية على ميزان الشَّرع، وأن تَخْضعَ للتَّحليل الشَّرعي الدِّيني، وفي هذا يقول: «وإنْ كُنَّا نُقرُّه [أي: التَّصوُّف] فلسفةً روحانيَّةً جَاءتْنَا من غير طريق الدِّين، ونُرغمُها على الخُضُوع للتَّحليل الدِّيني»[28].

ويقول رَحِمَهُ اللهُ: «والحقُّ في هذه النَّزعَة أنَّها صبْغَةٌ روحيَّةٌ مَرجُوحةٌ في ميزان الشَّرع وأَحكَامه، وإنَّما يُقبَلُ منها ما يُسَايرُ المأْثُورَ، ولا يُجَافي المعروفَ من هَدي محمَّد ﷺ وأصحابه، فإنَّ الدِّينَ قد تَكامَل بختَام الوحي، والزِّيادةُ فيه ـ بعد ذلك ـ كالنَّقص منه؛ كلاهُما مُنكَرٌ، وكلاهما مرفوضٌ، وما لَم يَكُنْ يَومَئذٍ دينًا، فليس بدينٍ بعد ذلك»[29].

والشيخ الإبراهيمي في موقفه هذا مُقْتَفٍ لآثَار مَنْ سَبَقَه من أئمَّة السُّنَّة وحُمَاتها، ومُقْتَدٍ بهم، حيث قال قبل كلامه السَّابق: «وكان لأئمَّة السُّنَّة وحُمَاتهَا ـ الواقفين عند حُدُودها ومَقَاصدها ومَأْثُورَاتها ـ مَوَاقفُ مع الحَاملين لهذه النَّزعَة، ومَوَازينُ يَزنُون بهَا أعمالهم وآراءهم، وما يَبْدُر على ألسنَتهم من القَول فيها، ولسانُ هذه الموازين هو: صَريحُ الكتاب وصَحيحُ السُّنَّة».

الشيخ الإبراهيمي يُبيّن قَصدَه من هذه الرُّدُود

لقد وضعَ العلماءُ شرطين لنَقْض المقَالات المُخَالفَة للكتاب والسُّنَّة، ونَقْد الدُّعاة إليها، وهما: العلمُ وسَلامَةُ القَصْد:

فبالعلْم يكونُ الرَّدُّ قائما على البَيِّنَات الشَّرعية، والأدلَّة اليقينيَّة.

وبسَلامَة القَصد يكونُ مطلوبُ الرَّادِّ إظهارَ الحقِّ الذي بعث الله ﷻ به رسولَه ﷺ، وأَنْ يكونَ الدِّينُ كلُّه لله، وأَنْ تكونَ كلمتُهُ هي العليا، فيكون بذلك هذا الردُّ منْ تَمَام النُّصح لله ولكتَابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين، وعامَّتهم[30].

وقد أبانَ الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ عن قَصده في رُدُوده على الصُّوفيَّة، فقال: «إنَّنا لا نَحملُ لهؤلاء المشايخ [أي مشايخ الصُّوفية] ولا لأولادهم ولا لأحفادهم حقدًا، ولا نَضْطَغنُ عليهم شَيئًا، ولا نُنْفسُ عليهم مالاً من الأُمَّة ابْتَزُّوه، ولا جاهًا على حسَابها أَحرَزُوه، وليس بَيْنَنا وبَيْنَهم تَرَاتٌ قديمة، ولا ذُحُولٌ مُتَوارَثَةٌ، ولا طَوَائلُ مَغرومَة؛ وإنَّما هو الغَضَبُ لله ولدينه وحُرُمَاته أنطَقَنا»[31].

قاعدة عظيمة للشيخ الإبراهيمي في ميزان قبول العمل

ذكر الشيخ الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ قاعدةً عامَّة في الميزان الذي تُقبَلُ به أعمالُ العباد، فقال في فصل بعنوان «دَفْعُ شُبهَة ونَقْضُ فرْيَة في هذا المَقَام»: «ونحن إذْ نُنْكرُ؛ إنَّما نُنْكرُ الفاسدَ من الأعمال، والباطلَ من العقائد؛ سواءٌ علينا أَصَدَرَتْ من سَابق أم من لاحق، ومن حيٍّ أم من مَيت؛ لأَنَّ الحُكْمَ على الأعمال لا على العاملين، وليس صُدُورُ العمل الفاسد من سَابق بالذي يُحدثُ له حُرمَةً، أو يُصَيِّرُه حُجَّةً على اللاَّحقين؛ بل الحُجَّةُ لكتاب الله ولسنَّة رسوله، فلا حقَّ في الإسلام إلاَّ ما قام دَليلُه منهما، واتَّضَحَ سبيلُه من عمل الصحابة والتابعين بهمَا، أو إجماع العلماء ـ بشَرطه ـ على ما يُستَنَدُ عليهما، وبهذا الميزان فأعمالُ النَّاس إمَّا حَقٌّ فيُقْبَلُ، أو بَاطلٌ فيُرَدُّ»[32].

جَزَى اللهُ الشَّيخَ الإبراهيمي خيرَ الجزاء، وأسبغَ عليه شآبيب الرحمة والمغفرة، وأسكنه فراديس الجنَان. آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

❁❁❁

(27) «آثاره» (1/168).
(28) «آثاره» (1/175).
(29) «آثاره» (5/142).
(30) انظر: «الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير» لابن رجب (ص5).
(31) «آثاره» (1/177).
(32) «آثاره» (1/174).

الجزء المسلسل بالأوَّلِيَّة، والكلامُ عليه

لعلاء الدين أبي الحسن عليّ بن إبراهيم بن داود العطّار الدمشقي
تلميذِ الإمام النووي، المتوفَّى سنة (724هـ)



■ قرأه وعلق عليه: عمار تمالت
باحث بمركز الملك فيصل ـ الرياض

إنَّ من الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة الَّتي اعتنى بها العلماءُ غايةَ الاعتناء، وتواصَوْا بحفظها وتبليغها، وجعلوها في أوَّل مسموعاتهم ومرويَّاتهم، وعَقَدُوا لها مجالسَ السَّماع وحفْظ سلْسلَة الأسانيد: حديثَ «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»، وقد عُرِفَ عندهم وتواطؤوا على تسميته بالحديث المُسَلْسَل بالأَوَّلِيَّة؛ لتواطؤ رجالِ إسناده على جَعْله أوَّلَ ما يسمعون من الحديث على شيوخهم.

وحُقَّ له ذلك، فيا له من حديث شريف قويِّ المبنى!، بالغ المعنى!، صدرَ من مشكاة الوحي حاملاً المقصدَ الَّذي شُرِعَ من أجله الإسلام، وبُعث به الأنبياءُ عليهم السَّلام جميعًا وآخرُهم نبيُّنا ﷺ، ألا وهو رحمةُ الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ]، فدينُ الإسلام ورسالتُه إلى العالمين هي تحقيقٌ لهذا المقصد الشَّريف، وما من شعيرة من شعائر الإسلام الشَّريف والدِّين الحنيف إلاَّ ويظهرُ في معانيها وصفُ الرَّحمة والتَّراحم.

والرَّحمةُ كما هي كمالٌ في طبيعة البشر، فإنَّها تحصُلُ للمؤمنين المهتدين بحسب هُداهم، فكلَّما كان نصيبُ العبدِ من الهُدى أتمَّ كان حظُّه من الرَّحمة أوفرَ.

ورحمةُ الله تُستجلبُ بطاعته وطاعةِ رسوله، والاستقامة على الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، كما تُستجلبُ بتقوى الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ [سورة الحجرات]، ومن أعظم ما تُستجلبُ به رحمةُ الله: الرَّحمةُ بعباده، كما في حديث هذا المقال.

والرَّحمةُ ليست مجرَّدَ حنانٍ لا عقلَ معه، وليست شفقةً تتنكَّرُ للعدلِ والنِّظام، كلاَّ! بل إنها خُلُقٌ يرعى الحقوقَ كلَّها؛ فقد تأخذُ الرَّحمةُ صورةَ الحَزْم حين يُؤخذُ الصَّغيرُ إلى المدرسة إلزامًا من أجل التَّربية وطلب العلم، والطَّبيبُ يمزِّقُ اللَّحمَ ويهشمُ العظمَ ويبترُ العضوَ وما فعلَ ذلك إلاَّ رحمةً بالمريض وطلبًا لشفائه، ناهيكَ ـ أخي القارئ ـ بإقامة الحدود، والأخذ على أيدي السُّفهاء، وأَطْرِهم على الحقِّ أَطْراً، فهي الرَّحمةُ في مآلاتها، والحياةُ في كمالاتها، ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [سورة البقرة].

وقد عقدَ بعضُ العلماء لحديث الرَّحمة أجزاء ومؤلَّفات، منهم: إسماعيل ابن السَّمرقندي (ت 536 هـ)، وعبد المؤمن الدِّمياطي (ت 705 هـ) وغيرهما، ومنهم الإمام علاءُ الدِّين ابنُ العطَّار.

فقد أسندَ ابنُ العطَّار هذا الحديث من عدَّة طرق، وتفنَّنَ في صياغة أسانيده وتشجيرها، ثمَّ تكلَّمَ على معانيه في أربع فوائد جليلة.

وابنُ العطَّار هو[1]: الإمامُ الفقيهُ علاءُ الدِّين أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن داود الدِّمَشْقي.

وُلدَ يومَ عيد الفطر سنة 654هـ، وبدأ تعليمَه في الكُتَّاب، فحفظَ القرآنَ الكريمَ في صغره، وسمع الحديثَ الشَّريفَ على جماعة من الحُفَّاظ كعادة أهل عصره، ثمَّ لازمَ الإمامَ محيي الدِّين النَّووي (ت 676هـ) ملازمةً شديدةً، فإنَّه لم يكدْ يبلغ سنَّ الخامسة عشر من عمره حتَّى اختصَّ به، ونهلَ من علمه الكثير، ولُقِّبَ بـ«مختصر النَّووي».

ثمَّ رحلَ إلى عدَّة بلدان، وأخذَ العلمَ عن أهلها، منها: مكَّة المكرَّمة، والمدينة النَّبويَّة، وبيت المقدس، ونابلس، والقاهرة.

وعاد رحمه الله إلى بلده دمشق، وتفرَّغَ للإفتاء والتَّدريس، والجمع والتَّصنيف، ونسخَ الكتبَ والأجزاءَ، ووليَ مشيخةَ عدَّة دور للعلم؛ منها: دار الحديث النُّوريَّة، والقليجيَّة وغيرهما.

وكان رحمه الله على منهج السَّلف في الاعتقاد، وعلى طريقتهم في إثبات صفات الله إثباتًا يليقُ بجلاله وعظمته، وتنزيهها عن مشابهة صفات المخلوقين، وعدم تعطيلها وتأويلها كما هو مذهبُ الجهميَّة ومَن وافقهم، وقد أبان عن ذلك في رسالته «الاعتقاد الخالص من الشكِّ والانتقاد».

له عدَّةُ مؤلَّفات تدلُّ على وافر علمه، طُبع منها جملةٌ كـ: «الاعتقاد»، و«تحفة الطَّالبين في ترجمة الإمام محيي الدِّين»، وبقي بعضٌ منها مخطوطًا كـ: «العُدَّة في شرح العمدة»[2].

توفي الإمام ابن العطَّار بدمشق سنة (724هـ).

وهذا الجزء الَّذي أُحقِّقُه وأُتحفُ به قرَّاءَ هذه المجلَّة الغرَّاء ثابتُ النِّسْبة له بلا شكٍّ، فهو ـ وإن لم يصرِّحْ بتسميته مَن ترجَمَ له ـ داخلٌ ضمنَ عموم قولِ ابن كثير في ترجمته[3]: «وله مصنَّفات وفوائد، ومجاميع، وتخاريج»، ثمَّ وجودُ خطِّه عليه أكبرُ دليلٍ على نسبته إليه.

وقد عثرتُ بفضلِ الله على نسخته الخطِّيَّة أثناء تصفُّحي لبعض مجاميع المكتبات التُّركيَّة، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنيَّة بمدينة أنقرة تحت رقم: (FB 145/1).

تقعُ النُّسخةُ في أربع ورقات، وكُتبت بخطٍّ نسخ، بيد محمَّد بن سَلْمان بن داود الجَوْهَري الشَّافعي، وتاريخُ كتابتها هو تاريخُ السَّماع المثبت عليها: 712 هـ، وعليه تصحيحُ ابن العطَّار بخطِّه، وهذا نصُّه:

«سمعَ هذا الجزءَ على مؤلِّفه الشَّيخ الإمام الحافظ المُتْقِن علاء الدِّين أبو الحسنَ علي بن إبراهيم العطَّار أثابه الله الجنَّةَ: الشَّيخ شمس الدِّين أبو عبدالله محمَّد بن الشَّيخ يوسف ابن وَهْب المَوْصِلي خادمُ المصحف العثماني، والشَّيخ شهاب الدِّين أحمد بن علي ابن عِمْران الصَّنْعاني اليماني، والشَّيخ عمر ابن محمَّد بن عمر اليماني، وكاتب الجزء محمَّد بن سَلْمان بن داود الجَوْهَري الشَّافعي، وجمال الدِّين داود أخو الشَّيخ المخرِّج[4]، وذلك في مجلسٍ واحد بعد صلاة الجمعة تاسعَ عشر جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وسبعمائة.

صحيحٌ ذلك، كتبه مخرِّجه ابن العطَّار عفا الله عنهما».

❁❁❁

(1) عقدَ له الدُّكتور محمَّد السُّليماني ترجمةً حافلةً علميَّةً مميَّزَةً في مقدِّمة تحقيقه لكتابه «أدب الخطيب».

(2) حقَّقَ قسمًا منه أخونا الشَّيخ الدُّكتور عبدالخالق ماضي في أطروحته الَّتي نال بها شهادة الدُّكتوراه.

(3) «البداية والنِّهاية» (251/18).

(4) توفي سنة 752هـ، له ترجمة في «الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة» (95/2ـ96).

❁ وهذا نصُّ الجزء:

الجزء المسلسل بالأوَّليَّة،
والكلامُ عليه.

تخريج: شيخنا الشَّيخ الإمام العالم العامل الزَّاهد العابد الحافظ المتقن، بقيَّة السَّلف قُدوة الخلف علاء الدِّين أبي الحسن علي بن إبراهيم بن داود العَطَّار الدِّمشقي أعلى الله درجته، ونفعنا ببركته، آمين؛ الحمد لله ربِّ العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخُنا الشَّيخُ الإمامُ العالمُ المفتي الحافظُ المحقِّقُ الضَّابطُ، علاءُ الدِّين أبو الحسن علي بنُ إبراهيم بن داود العَطَّار الدِّمشقي الشَّافعي . أثابه الله الجنَّةَ .، وأخبرنا به يومَ الأربعاء ثاني جمادى الأولى سنةَ اثنتيْ عشرة وسبعمائة بدار الحديث النُّوريَّة[5] . وهو أوَّلُ حديث سمعناه منه مُسْنَداً .:

أخبرنا الشيخُ الإمامُ أبو الحسن علي بنُ أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي[6] رحمه الله قراءةً عليه وأنا أسمعُ في يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان سنةَ سبع وستِّين وستِّمائة . وهو أوَّلُ حديث سمعتُهُ منه ..

وحدَّثنا الإمامان المفتيان أبَوَا محمَّد أبو الفَرَج عبد الرَّحمن بنُ الشَّيخ القدوة أبي عُمَر محمَّد بن أحمد بن قُدامة المقدسي وابنُ سَلْمان[7] بن سعيد البغداديُّ . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه من لفظهما ..

قالوا: أنا أبو اليُمْن زَيْد بنُ الحسن ابن زَيْد الكِنْدي اللُّغَوي قراءةً عليه ونحن نسمعُ، قال: ثنا الإمامُ أبو بكر محمَّد ابنُ عبد الباقي بن محمَّد الفَرَضي البَزَّاز . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه من لفظه، وذلك في ثاني عشر صفر من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ببغداد .، حدَّثني القاضي الشَّيخ أبو الحسن علي بن المُفَرِّج بن عبد الرَّحمن الصِّقلِّي رحمه الله من لفظه بمكَّة في المسجد الحرام تُجاهَ الكعبة في بُكرة يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجَّة من سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه ..

(ح)[8] وحدَّثنا الإمامُ المفتي المحدِّث أبو زكريَّا يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح الحرَّاني . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه من لفظه . يومَ عيد الفطر سنةَ ثمانٍ وستِّين وستِّمائة، أخبرنا شيخُنا الإمامُ الحافظ ثقة الحفَّاظ أبو محمَّد عبد الرَّحمن بن عُمَر بن أبي نصر بن علي بن عبد الدَّائم المعروف بابن الغَزَّال الحنبلي رحمه الله بقراءتي عليه في منزله بالقَطيعَة[9] في يوم السَّبت تاسع صفر سنةَ خمسَ عشرةَ وستِّمائة.

(ح) وحدَّثنا الإمام الحافظُ أبو الحسن علي بنُ بَلْبان المُشَرِّف . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه من لفظه .، حدَّثنا الشَّيخُ أبو طالب عبد اللَّطيف بنُ محمَّد بن علي بن حمزة بن القُبَّيْطي الحَرَّاني نزيلُ بغداد . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه من لفظه . سنةَ ثلاث وثلاثين وستِّمائة في جمادى الأولى.

قالا[10]: حدَّثنا أبو بكر أحمد بنُ المُقَرَّب بن الحسين الكَرَجي . وهو أوَّلُ حديث سمعناه منه، قال ابنُ القُبَّيْطي: وهو أوَّلُ حديث سمعتُه من لفظه .، حدَّثنا أبو محمَّد جعفر ابن أحمد بن الحسين السَّرَّاج . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه ..

قالا[11]: حدَّثنا أبو نصر عُبَيْد الله بنُ سعيد بن حاتم الحافظ السِّجْزي . وهو أوَّلُ حديث سمعنا منه .، حدَّثنا أبو يَعْلَى حمزة بنُ عبد العزيز المُهَلَّبي . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه .،(ح) وحدَّثنا أبو زكريَّا يحيى بن أبي منصور الفقيه . وهو أوَّل حديث سمعته منه . قال: حدَّثني الإمامُ الزَّاهدُ شيخُ الشُّيوخ أبو نصر عُمَر ابنُ محمَّد السَّهْرَوَرْدي . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه .، ثنا عمِّي أبو النَّجيب عبدُ القاهر بنُ عبد الله بن محمَّد القُرَشي التَّيْمي[12] . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه ..

(ح) وأخبرنا الإمامُ المحدِّثُ الزَّاهدُ العابدُ أبو اليُمْن عبد الصَّمد بنُ عبد الوهَّاب بن الحسن بن محمَّد بن عساكر الدِّمشقي ثمَّ المكِّي رحمه الله . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه . في يوم الثُّلاثاء سادس عشر ذي الحجَّة سنةَ ثلاث وسبعين وستِّمائة بمنزله بأَجْياد من مكَّة . زادها الله تشريفًا وتعظيمًا.، قال: حدَّثنا والدي أبو الحسن عبد الوهَّاب . نَضَّرَ اللهُ وجهَه . من لفظه وحفْظه في ربيع الأوَّل سنةَ سبع وعشرين وستِّمائة . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه .، حدَّثني والدي أبو البركات الحسن ابن محمَّد المُلَقَّب بالسَّجَّاد سنةَ ستٍّ وتسعين وخمسمائة . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه .، حدَّثني عمِّي الحافظ أبو القاسم علي ابنُ الحسن بن هبة الله الشَّافعي[13] . وهو أوَّلُ حديث سمعتُه منه ..

قالا[14]: حدَّثنا أبو القاسم زاهر ابنُ طاهر بن محمَّد الشَّحَّامي قراءةً عليه

(5) أنشأها السُّلطان نور الدِّين محمود بن زنكي الملقَّب بالملك العادل (511 . 569هـ).
(6) هو المعروف بابن البخاري.
(7) يعني: عبد الرَّحمن بن سلمان.
(8) هذا الحرف يستعمله المحدِّثون لتحويل السَّند.
(9) ناحية بباب الأَزَجِّ ببغداد «معجم البلدان» (168/1).
(10) يعني: ابن الغزَّال وابن القُبَّيْطي.
(11) كُتب على الحاشية: يعني: الصِّقلِّي والسَّرَّاج.
(12) هو: السَّهروردي المتصوِّف.
(13) هو: الحافظ ابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق».
(14) يعني: السَّهروردي وابن عساكر.

- وهو أوَّلُ حديثٍ سمعناه منه -، حدَّثنا أبو صالح أحمدُ بن عبدالملك المؤذِّن - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعناه منه -، حدَّثنا أبو طاهر محمَّدُ بنُ محمَّد بن مَحْمِش الزِّيادي - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منه -.

قالا[15]: حدَّثنا أبو حامد أحمد بنُ محمَّد بن بلال - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعناه منه -، حدَّثنا عبد الرَّحمن بنُ بِشْر ابن الحَكَم العَبْدي - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منه -، وفي كتابي عن أبي زكريَّا من رواية السَّهْرَوَرْدي: محمَّد بن بِشْر، وهو غَلَط، قال: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة الهلالي - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منه -، عن عَمْرو بن دينار، عن أبي قابوس مَوْلَى عبدالله بن عَمْرو بن العاصي، عن عبد الله ابن عَمْرو رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَن في السَّمَاء».

ولفظُ ابن عساكر: **«ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْض»**، والباقي سواء.

وحدَّثنا الفقيه أبو محمَّد أحمد ابنُ أبي بكر بن خليل القُرَشي العثماني العَسْقَلاني المَكِّي في يوم السَّبت تاسع عشر ذي الحجَّة سنةَ ثلاث وسبعين وستِّمائة تُجاه الكعبة المُعَظَّمة - زادَها الله تشريفًا - والمحدِّثُ الصَّالحُ أبو عُمَر عثمان بن محمَّد بن عثمان المالكي يومئذ - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منهما من لفظهما -، قالا: حدَّثنا أبو الفَرَج عبد اللَّطيف بنُ عبد المنعم بن علي الحرَّاني - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعناه منه -.

(ح) وكتبَ إليَّ أبو الفَرَج الحرَّاني به قبل ذلك - وهو أوَّلُ حديثٍ كتبتُه عنه -، قال: حدَّثنا الإمام أبو الفَرَج عبدالرَّحمن بنُ علي ابن الجَوْزي - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منه -، حدَّثنا أبو سَعْد إسماعيلُ بنُ أبي صالح أحمد بن عبدالملك المؤذِّن النَّيسابوري - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منه -، أخبرنا والدي الإمامُ أبو صالح - وهو أوَّلُ حديثٍ سمعتُه منه -، حدَّثنا الأستاذُ الإمامُ أبو طاهر محمَّد بنُ محمَّد ابن مَحْمِش الزِّيادي، حدَّثنا أبو حامد أحمد بنُ محمَّد بن يحيى بن بلال البَزَّاز، حدَّثنا عبد الرَّحمن بنُ بِشْر بن الحَكَم، حدَّثنا سفيان بنُ عُيَيْنَة، عن عَمْرو ابن دينار، عن أبي قابوس مَوْلَى عبدالله ابن عَمْرو بن العاص، عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. تَبَارَكَ وتَعَالَى -، ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْض يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاء».

قال عبد الرَّحمن بنُ بِشْر بن الحَكَم: هذا أوَّلُ حديثٍ سمعتُه من سفيان ابن عُيَيْنَة.

وقال أبو حامد بنُ بلال: هذا أوَّلُ حديثٍ سمعتُه من عبد الرَّحمن بن بِشْر ابن الحَكَم.

وقال أبو طاهر محمَّد بنُ محمَّد ابن مَحْمِش الزِّيادي الإمام: هذا أوَّلُ حديثٍ سمعتُه من أبي حامد أحمد بن محمَّد ابن يحيى بن بلال البَزَّاز.

وقال الشَّيخ الإمام والدي أبو صالح أحمد بن عبدالملك المؤذِّن الحافظ: هذا أوَّلُ حديثٍ سمعتُه من الإمام أبي طاهر محمَّد ابن محمَّد بن مَحْمِش الزِّيادي رحمه الله.

هذا حديثٌ غريب، لم يَرْوِه غيرُ عَمْرو ابن دينار عن أبي قابوس، تفرَّدَ به سفيان ابنُ عُيَيْنَة عن عَمْرو.

ورواه أبو داود في الأدب[16]، عن أبي بكر ومُسَدَّد عن سفيان بن عُيَيْنَة عن عَمْرو عن أبي قابوس به.

ورواه التِّرمذي[17] عن محمَّد ابن يحيى بن أبي عُمَر العَدَني عن سفيان في البِرِّ أتمَّ من الأوَّل، وفيه: **«الرَّحِمُ شُجْنَةٌ»**، وقال: «حسن صحيح».

وهذا الحديثُ مُسَلْسَلٌ بالأَوَّليَّة إلى سفيانَ على الصَّحيح، وقد رُوِيَ مُسَلْسَلاً بها إلى النَّبيِّ ﷺ، وإلى عبد الله ابن عَمْرو، وإلى أبي قابوس، وإلى عَمْرو ابن دينار، وكلُّها ضعيفةٌ أو شاذَّةٌ.

وأبو قابوس لا يُعرَفُ إلاَّ بكُنْيته، وحُكيَ عن أبي الفَرَج ثابت بن محمَّد المَديني[18] الحافظ أنَّ اسمَه المُبَرِّد، وقال الشَّيخ أبو عَمْرو بنُ الصَّلاح رحمه الله: «ليس هذا ممَّا يُركَنُ إليه»، وقابوسُ لا ينصرفُ؛ للعُجْمَة والعَلَميَّة، ويَمتنعُ دخولُ الألف واللام عليه، دون طاوس قبلَ العَلَميَّة وهو اسمُ جنس، قال الشَّيخ أبو عَمْرو بن الصَّلاح: «ويحتملُ جوازُ صَرْفه على أنَّه منقولٌ من العُجْمَة إلى العَلَميَّة»، بمعنى النَّقل من القابوس وهو الجميلُ الوجه الحسنُ اللَّون، لكنَّ الجَزْمَ بامتناع صَرْفه يدلُّ على أنَّه منقولٌ من العُجْمَة إلى العَلَميَّة من غير تردُّد.

ومَحْمِش بفتح الميم الأولى وكسر الثَّانية بينهما حاءٌ مهملةٌ ساكنةٌ وآخرُه شينٌ معجمةٌ.

والزِّيادي نسبة إلى مَحَلَّة كان يَنزلُها من نيسابور يسمَّى ميدانُ زياد ابن عبد الرَّحمن، وهي صحيحةٌ من حيث العربيَّة؛ لأنَّا إذا أردنا أن نَنْسِبَ إلى اسمين أُضيفَ أحدُهما إلى الآخر والثَّاني

(15) كُتب في الحاشية: السِّجزي وابن محمش.

(16) «سنن أبي داود» (4943).

(17) «جامع التِّرمذي» (1924) والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحة» (925) وقد صحَّحه الشَّيخ الألباني بالشَّواهد.

(18) نسبتُه إلى المدينة القديمة ويقال لها: شهرستان، توفي سنة 595هـ «التَّكملة لوفيات النَّقلة» (1/331.332).

مسمًّى على انفراده فإنَّا ننسبُ إليه فقط، فالنِّسبةُ إلى أبي طالب طالبي، ولهذا قالوا: الطالبيُّون في النِّسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

والعاصي يقولُه كثيرٌ من أهل الضَّبط بالياء على الجادَّة، والمشهور على ألسنة المحدِّثين كتبُه بلا ياء[19].

■ وفي هذا الحديث فوائد:

الأولى: قولُه ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ**» دليلٌ على أنَّ رحمةَ خَلْقِ الله سببٌ لرحمة الله تعالى.

الثَّانية: قوله ﷺ: «**يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ**» ممَّا يجبُ الإيمانُ به، وإجراؤه على ظاهره، مع التَّصريح بالتَّنزيه والتَّقديس، والتَّبرِّي من التَّحديد[20] والتَّشبيه والتَّعطيل؛ لأنَّه ﷺ أطلقَه ولم يُقَيِّدْه بكيفيَّة، فوجبَ الإيمانُ به على ما ذكرنا، وهذه طريقةُ صدرِ الأمَّة وسادتها، وهي اختيارُ أئمَّة الفقهاء وقادتها، وينبغي للعبد - مع الإيمان بذلك - أن لا يُفكِّرَ في معناه، إلاَّ أنْ يَرِدَ نصٌّ من كتاب أو سنَّة به، فإنْ نَبَغَ نابغةٌ في الكلام في ذلك وَجَبَ الرَّدُّ عليه على الطَّريقةَ الَّتي ذكرناها، مع التزام التَّبرِّي من التَّحديد والتَّشبيه والتَّعطيل، فسبحان مَن الوجودُ قائمٌ بوجوده[21]، لا يُشْبِهُه شيءٌ، ولا يَحُدُّه حدٌّ[22]، أَوْجَدَ الأشياءَ من العَدَم وكان سبحانه ولا شيء معه، وهو الَّذي علَّمَنا ما لم نعلَم وعَرَّفَنا به، لا علمَ لنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا، ولا معرفةَ لنا إلاَّ بتعريفك إيَّانا، ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير، ذاتُه لا تُشْبِهُ الذَّوات وصفاتُه لا تُشْبِهُ الصِّفات، والتَّصرُّفُ في أدلَّتها وتأويلها لا يُشْبِهُ التَّصرُّفات.

الثَّالثة: كما أنَّ الرَّاحمَ منَّا مَرْحُومٌ، كذا غيرُ الرَّاحم غيرُ مَرْحوم، ويؤيِّدُ ذلك قولُه ﷺ: «**مَنْ لا يَرْحَمْ لاَ يُرْحَم**»[23]، وقولُه ﷺ: «**لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ منْ شَقيٍّ**»[24]، وقوله ﷺ: «**إنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ منْ عِبادِه الرُّحَمَاءَ**»[25].

ثمَّ إنَّ رحمةَ الله للرُّحَماء من خَلْقه المذكورةَ في هذه الأحاديث هي غيرُ الرَّحمة الَّتي بَثَّها بين خَلْقه في الدُّنيا، فإنَّه سبحانه قد جعلها وكانت، وإنَّما هي الرَّحمةُ الموْعُودُ بها في الآخرة؛ لأنَّ رحمتَه في الدُّنيا لا تَخُصُّ الرَّاحمَ، بل هي له ولغيره.

ثم إنَّه ﷺ قابَلَ لفظ «الرَّاحمُونَ» بلفظ يدلُّ على المبالغة وهو «الرَّحمن»، مبالغةً في رحمتهم.

ويدلُّ على أنَّ كَوْنَ رحمة الله المذكورة في هذا الحديث أنَّها في الآخرة دون الدُّنيا ما ثبتَ في «الصَّحيحين»[26] من رواية أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**خَلَقَ اللهُ مائَةَ رَحْمَة، وَأَنْزَلَ منْهَا رَحْمَةً بَيْنَ عبَاده فبهَا يَتَرَاحَمُونَ وبهَا يَتَعَاطَفُونَ، فَإذَا كَانَ يَوْمُ القيَامَة جَمَعَ هَذه الرَّحْمَةَ إلَى التِّسْعَة والتِّسْعينَ فَفَضَّهَا عَلَى عبَاده**».

قال سُلَيم رحمه الله[27]: «مِن رحمة واحدة أصابَنا القرآنُ والإيمانُ وفعلَ وفعلَ، أفلاَ نرجو من مائة رحمة الجنَّة؟!».

الرَّابعة: ينبغي رحمةُ جميع مخلوقات الله تعالى والإحسانُ إليهم، على كلِّ حالٍ بحَسَبه، حتَّى في المؤلمات كالذَّبح واستيفاء الحدود والجنايات، من تحديد آلة الذَّكاة، وعدم سَلْخ المذبوح حتَّى تسكُنَ حركتُه، وكذلك لا تُقَامُ الحدودُ في الحرِّ والبرد الشَّديدين، وكذا لا يُقامُ الحدُّ على حاملٍ حتَّى تضع، وكذلك لا يُفرَّقُ بين والدة وولَدها قبل سبع سنين وفيما بعد ذلك خلافٌ، وكذلك مُنِعَ من المُثْلَة، وشُرِعَ العفوُ عن القصاص، وشرعيَّة العقوبات والمؤاخذات زَجْرٌ عن الفساد في الأرض وكَفُّ العادية عن الخَلْق، فهي إذاً مَراحمُ، والله أعلم.

فسبحان مَنْ أَوْجَدَنا من العَدَم، وخلَقَ فينا أفعالاً وأقوالاً وأحوالاً أثابنا عليها جُودًا وكَرَمًا.

ومَن كان هذا وصفُه فحَقيقٌ بنا الشَّوْقُ إليه وطَلَبُ الوصول إليه، اللَّهم اجْعَلْ شَوْقَنا إليك، فإنَّه لا حول ولا قوَّة إلاَّ بك.

أنشدنا الشَّيخ العارفُ الفاضلُ أبو عبد الله محمَّد ابن بِشْر النَّووي أصلاً رحمه الله[28] في غالب الظَّنِّ بدمشق بحضرة شيخنا الحافظ أبي زكريَّا يحيى ابن شرف النَّووي رحمه الله لنفسه[29]:

بشائرُ قلبي يومَ سَيْري إليكم
فيالَ سُروري يومَ سَيْري إليكم

وفي رِحْلَتي يَصْفُو مقامي فَحَبَّذا
مقامٌ به حطَّ الرِّحالُ لديكم

ولا زادَ لي إلاَّ يقيني بأنَّكم
لكم كرمٌ يُغْني الوفودَ عليكم

آخرُه، والحمد لله أوَّلاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلَّى الله على محمَّد وآله وصحبه وسلم.

---

(19) انظر: «تهذيب الأسماء واللُّغات» (2/62).

(20) يعني: تحديد حقيقة الصِّفة.

(21) أي أنَّ كلَّ موجود إنَّما يستمدُّ وجودَه من وجود الله سبحانه وتعالى.

(22) المراد أن الله لا يحده شيء لأنه أكبر من ذلك، وأما الحد الذي يراد به أنه بائن من خلقه فواجب اعتقاده على أن لفظ الحد لا يثبت فيه شيء لا نفيًا ولا إثباتًا.

(23) أخرجه البخاري (5997) ومسلم (2318) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والبخاري (6013) من حديث جرير بن عبد الله البجلي.

(24) أخرجه أبو داود (4942) والتِّرمذي (1924) والإمام أحمد (8001) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث حسن.

(25) أخرجه البخاري (1284) ومسلم (923) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه .

(26) البخاري (6469) ومسلم (2753).

(27) هو: أبو الفتح سُلَيم بن أيُّوب بن سُلَيم الرَّازي، من كبار فقهاء الشَّافعية، توفِّي غريقًا بعد أن حجَّ سنة 447هـ. «سير أعلام النُّبلاء» (17/645-647).

(28) لم أقف على ترجمته.

(29) الأبيات أوردها السَّخاوي في «المنهل العذب الرَّوي» (37).



الجزء الثاني

المقامة الرَّمضانيَّة

■ محمد بوسلامة
الجزائر

قال محمَّد بن علي:

كنت قد حدَّثتُكَ في سالف الزَّمان عن عبد الحيّ، وما جرى عليه في سوق الحيّ، من عجائب الأخبار، وجوالب الاعتبار، ثمَّ إنَّه قد سألني صديق لبيب، له عليَّ حقوق الخلِّ الحبيب، أنْ أتمِّم له باقيَ الرِّواية، وما كان من عبد الحيِّ في سائر يومه من غواية، فترَدَّدتُ في إسعافه بالمطلوب لكلال أصاب الخاطر، ولعرج أصاب يراعتي فتعثَّرت بين المساطر، ثمَّ حصلت للنَّفس بعد ذلك النِّيَّة، فجاء المرقوم بتمام المقامة الرَّمضانيَّة، ولقد كان من خبر عبد الحيِّ أنَّه لمَّا تراءى لأهل الدَّار، وقد مالت به الأثقال من جدار إلى جدار، وألجمه من العرق سيول، وطار على وجهه بعض أوراق «الدُّيول»[1]، صاحت عرسه في أبنائها أَدْرِكوا أباكم عبد الحيِّ، ويلَ أمِّه غدا ضُحكةَ أهل الحيِّ، فاستبقوا مهطعين إليه، وهبُّوا لحمل الأوقار الَّتي كانت عليه، فلمَّا دنت منه طليعتهم نثل عليهم كنانة سباب، خَلُّوا الطَّريقَ وافتحوا الباب، فجاذبوه المجلوب، فمنهم غالب وآخر مغلوب، ثمَّ دلفوا بحميل كأنَّه جليب وليمه، وحالهم يذكِّرُ قولَ قائلة جذيمه:

ما للجمال مشيها وئيدا

أجندلا يحملن أم حديدا

ثمَّ خاضوا للهول غمارَه، وكَثُرَ العثار في سُلَّم العمارة، فلمَّا ولج عبد الحيِّ الدَّار، قال لزوجته: البدار البدار، قد أدبر أكثر النَّهار، قالت: أوافدٌ علينا اليوم ضيوف! أم فَتَحْتَ الأبوابَ للسَّائل والملهوف! فشبَّ حينئذٍ لعبد الحيِّ أُوَارُه، وثار للخصام في البيت غبارُه، وأقبل عليها بكلِّ شتيمة، يا خرقاء ويا لئيمة، يا لكاع، ويا شرَّ متاع، قد طال منك اللِّسان، وضاع فيك الإحسان، أَغَرَّك إغضائي عنكِ سنين، أم أنَّك كنتِ أُمَّ البنين، أترَيْنَني أُنْفِقُ من مال أبيك، أو أستكثر بعطاء أخيك، أم أنَّكِ تنفقين عليَّ بمقدار، كلاَّ فالمال مالي وأنا ربُّ الدَّار.

فنفضت المرأةُ نفسَها نفضَ الأديم، وثارت وهي على غيظ قديم، وسلَّت لسانها سلَّة قِرن مُكَافِح، وأجابته وقد طارت منها لوافح، هذا كلام سفيه، لا يعقل ما يخرج من فيه، وإنَّ كلَّ إناءٍ ينضح بما فيه، أين إحسانك، وقد أفسده لسانك، ما أسرعَ لسانَكَ إلى أخي وأبي، وكلاهما شَهْم أبي، واللهِ لو علم أبي عوجَك ما كان ليزوِّجَكَ - أنت والله - شؤمُ زماني، وإنَّ دهري بكَ رماني، فصاح صيحةَ منذرِ جيش، واللهِ لقد نكدَ منكِ العيش، يا سطوة الدَّهر، ويا فاقرةَ الظَّهْر، قد بدت اليومَ خوافيك، ولو كان الشُّوْمُ في شيءٍ فهو فيك، ثمَّ اشتدَّ الخصام، واختلط الكلام، وحميت الملاسنة، وغابت الكلمة الحسنة، وصارت الكلمات كالمطارق، وصاح عبد الحيِّ أنتِ اليومَ طالق، وما ارعوى حتَّى أعولت المسكينه، ثمَّ سكت فهدأت الدَّار ونزلت السَّكينة، فوجم بُرْهَةً ثمَّ حوْقَلَ واستغفر مولاه، وقال لزوجته: ادخلي المطبخ على بركة اللهِ، ثمَّ بدا له المقيل، فغطَّ في نوم ثقيل.

قال الرَّاوي فلمَّا سكت عن أمِّ البنين الغيظ، واستروحت بزفرات قيظ، شمَّرت إلى المطبخ، وهي لا تدري أيَّ شيءٍ تطبخ، غيرَ أنَّها لسيرتها المعتاده، بدأت بما جرت به العاده، ثمَّ شُغِلَ حالُها وبالُها بتدبير طعام عشرين، فطعام العشرة لا يكفي أسد العرين، فما راعها إلاَّ عبد الحيِّ يقف خلفها، فكاد الفزَعُ يُحْضِرُ

[1] أوراق رقيقة شكلها دائري تصنع من العجين تحشى غالبا باللحم المفروم (التحرير).

حتفها، ثمَّ جعل يدور، ويستنكه ما في القدور:

لعبد الحيِّ في طرق العجابِ
عجائب قَيْدُهَا لَكَ في كتابي
أعبد الحيِّ كم تسعى لبطن
يجرُّ عليك زاجرةَ العتاب
أتجهل ما المراد بصوم عبد
وما في ذاك من هدي الكتاب
تخاصم في النَّهار بكلِّ سُوق
وتلْقَى أهل بيتك في سباب
وطلَّقْتَ الحليلة دون ذنب
وأفزعْتَ البنين كليْثِ غاب
إذا شعبان ولَّى قلت جهلاً
أتى شهر المآكل والشَّراب
تطوف لدى الطَّبيخ بكلِّ قدر
وتفتح للشَّراهة شرَّ باب
فلا تكفي قدور راسيات
ولا تكفي جفان كالجوابي

فلمَّا رأت حالَه حالَ حارسٍ مراقب، تغافلت عنه خشيةَ سوء العواقب، ولم يزل عبد الحيِّ في خروج وولوج، وأمواجه في البيت تموج، حتَّى نادى المنادي، فهبَّ له وطار، ونادى: يا أهل البيت قد حلَّ الإفطار، فأحاط جمعهم بالخوان، وعليه ممَّا تشتهي النَّفْسُ ألوان، وأخذ عبد الحيِّ يسرِّحُ النَّظَرَ في صنوف المائدة، ويَذْكُرُ لهم ما لكلِّ نوع من فائدة، ثمَّ حلَّ عنه الحزام وافترس المائدة في اعتزام، ثمَّ تنحَّى بعد أَوْبَةِ العقول، ولسان حاله يقول:

إنِّي إذا هيَّجني الصِّيام
آكل ما تأكله الفئام
فنهمتي ليس لها انصرام
يا فرحتي إذا أقبل الظَّلام
وارتفع الأذان والإعلام
فما عليَّ بعدها ملام
طال بنا الفراق يا طعام
وجفَّت العروق والعظام
وصابني من هجرك الهيام
فلا تجي بغيرك الأحلام
كأنِّي حلَّ بيَ الوحام
يا ليت لي رأسًا له أفمام

ثمَّ صار مع أهل بيته في أحاديث أُنْس، وعادت إليه بعد ذلك طبائع الإنس، ثمَّ نادى مؤذِّنُ العشَاء فتجشَّم إليه، وتحامل إلى المسجد يجرُّ رجليْه، وكان كالَّذي فَتَحَ على نفسه بابًا بالسُّفوف، لأجل ذلك صلَّى في آخر الصُّفوف، فلمَّا كبَّر لصلاة العشاء، تنفَّست الأحشاء، وتوالى عليه الجُشاء، وثقل عليه الرُّكوع والسُّجود، فكأنَّه يَهْوِي من نجود، وعسرت عليه الأنفاس، وغالبه في صلاته النُّعَاس، وخالف عملَ الإمام، وأساء أدب الائتمام، ثمَّ جَرَت على مَنْ حوله كروب، ولاذ القوم بالهروب، وكلَّما انقضت ركعتان هَرْوَلَ إلى الميضأة ليستريح، وليُفَوِّتَ بعض صلاة التَّراويح، فلمَّا أَوْتَرَ الإمامُ وانصرف من مصلاَّه، رَمَقَه عبد الحيِّ فتلاه، ثمَّ سلَّم عليه مُغْضيا، وبالغ في شكره مُثْنيا، ثمَّ سأله عمَّا كان في صلاته وهل في بعضها إلغاء، وهو في ذلك كَمَنْ يسر حسوًا في ارتغاء، ولمَّا حصلت له المناجاة استفتاه في طلقة الحليله، وهل في ذلك عند الشَّيخ من حيله، ثمَّ أخبره بما كان، وأظهر النَّدم واستكان، فاسترجع الشَّيخ ثمَّ قرعه بزواجر وعظه، وحملق إليه بشوازر لحظه، فأخذ عبد الحيِّ يتلطَّف إلى الشَّيخ في إيجاز موعظته، والعجلة في جواب مسألته، فلمَّا فرغ من ذلك قال: أمَّا مسألتك الشَّرعيَّة فهي طلقةٌ رجعيَّة، وهي واحدة حقًّا، فاحفظ الاثنين فيما تبقَّى، فألقى عليه السَّلام، وأقبل على نفسه بالملام، ثمَّ خرج في أخلاط الزُّمَر، واستجاب لداعي السَّمر ، فلمَّا تأهَّب اللَّيل للأفول، وهمَّ الفجر بالقفول، طفق عبد الحي يذكِّر أهل النَّادي، ويحذِّرهم فجأة المنادي، ثمَّ انصرف إلى داره ثقيل الخطا، كليل المطى، حتَّى إذا دخل الدَّار ارتمى على مائدة السُّحور، ثمَّ غشيه من أضغاث الأحلام بحور.

قال محمَّد بن علي: هذا ما كان من خبر عبد الحيّ إذ رجع إلى داره، وقد حبَّرْتُ لك مقامةً تحوي غرائبَ أخباره، وقد سلكْتُ لك فيها مسالك الفكاهة، ومقاصد الجِدِّ تلوح لأهل النَّباهَة، ولم تَكُنْ أخبارًا صنعتها الأسجاع، وأبعد القلم فيها الانتجاع، بل هي أشياء تراها في النَّاس على وجه الحقيقة، وهي للَّبيب تبصرة تهدي إلى أقوم طريقة، ويتبصَّر بها كلُّ قلبٍ حيّ، وكم في الحيِّ من عبد الحيّ.

تمَّت

خُلق الرَّحمة

وأهميَّته في تربية الطفل



■ عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

إنَّ الأطفالَ أمانةٌ من الله عندنا، وودائع الأمَّة بين أيدينا، سُلِّمُوا إلينا صغارًا لنجعلَهم رجالاً ونساءً، وقُدِّمُوا إلينا مباني لنعمرها بالمعاني، وأوعيةً لنملأها بالفضيلة والعلم، فإنْ أحسنَّا التَّصرُّف وسِرْنا فيهم بسيرة أسلافنا من تربية فاضلة مستقيمة، ويقظة مستديمة، وعلوم بنَّاءة قويمة، كانوا صالحين لأمَّتهم ولأنفسهم، وإن أسأنا التَّصرُّف فيهم وسلكنا بهم أضدادَ المحاسن والفضائل بُنيَتْ حياةُ الجيل كلِّه على فساد، وساءت آثاره في الأمَّة.

ومن المسلَّمات عند علماء التَّربية أنَّ الأطفال مفطورون على غرائز ناقصة، يزيدها الإهمال وفقدان التَّربية الصَّالحة نقصًا وشناعةً، وتعالجها التَّربية الحكيمة كما تعالج الأمراض والأسقام، فإذا لم تعالج في الصِّغر اندملت نفوسهم عليها كما يندمل الجرح على فساد، وجفَّت كما يجفُّ العود على عوج، والتَّصرُّف السَّليم هو أن نضع أيدينا على تلك النَّقائص، وأن نتعهَّدها بالإصلاح والتَّقويم، أو بالتَّشذيب والتَّعديل، وأن نكون لهم قدوةً صالحةً في الأعمال والأحوال والأقوال، لا يرون منَّا إلاَّ الصَّالح من الأعمال، ولا يسمعون منَّا إلاَّ الصَّادق من الأقوال.

وإنَّ من الأسباب المعينة لضمان تربية مُثْلَى وفاضلة لأطفالنا هو أخذهم بالرَّحمة والرِّفق في تعاملنا معهم، أمرًا ونهيًا، نصحًا وتأديبًا، ثوابًا وعقابًا، وهذا سبب معين بحقٍّ على تنشئة الأطفال تنشئةً صالحةً موفَّقةً؛ لأنَّ ضدَّ ذلك ـ والمحاسن تظهر بأضدادها ـ وهو أخذهم بالقسوة والعنف معْوَلُ تهديم وأداةُ تحطيم يحمل الأطفالَ على الكذب والنِّفاق، ويغرس فيهم الجبن والخوف، ويبغِّض إليهم العلم والأدب، وكلُّ ذلك معدودٌ في جنايات المُرَبِّين الجاهلين بأصول التَّربية والتَّأديب.

وإذا كان النَّاس ـ كبارًا وصغارًا ـ مجبولين على حبِّ مَنْ أحسنَ إليهم فهذه الجبلَّةُ عند الصِّغار أظهرُ وأمكنُ، يحبُّون من يتحبَّب إليهم، ويميلون إلى مَنْ يُحْسنُ إليهم، ويأنَسُون بمَنْ يعاملهم بالرِّفق ويقابلهم بالبشاشة والبِشْر، فمن أراد أن يصل إلى نفوسهم من أقرب طريق، وأن يصلح نزعاتهم بأيسر كُلفة، وأن يحملهم على طاعته بأسهل وسيلة؛ فما عليه إلاَّ أن يتحبَّب إليهم، ويقابلهم بوجه متهلِّل، ويبادلهم التَّحيَّة، ويتفقَّد أحوالَهم باهتمام، ويضاحكهم ويمازحهم، ويقبِّلَهم ويحادثَهم بلطف وبشاشة، وما إلى ذلك من مظاهر الرِّفق والرَّحمة الَّتي جاءت النُّصوص الشَّرعيَّة تحثُّ على التَّحلِّي بها وتعتبرها من دعائم حسن المعاملة فيما بين خلق الله تعالى، وتحذِّرُ من المعاملة القاسية، وسلوكات الغِلْظَة والجفاء، وطبائع الرُّعونة والتَّزمُّت لما لها من آثار سلبيَّة تعود على الأطفال بالخيبة والخسران وفساد الطَّويَّة.

وفي طليعة هذه النُّصوص نجد الوصيَّة النَّبويَّة برحمة البنات والإشفاق عليهنَّ وتخصيصهنَّ بمزيد عناية واهتمام، حيث ضمن ـ عليه الصَّلاةُ السَّلامُ ـ أغلى سلعة عند الله ـ وهي الجنَّة ـ لمن ساق رحمته إلى بناته، وأحسن إليهنَّ وكفاهُنَّ فقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ؛ يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحُمُهُنَّ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ**»، فقال رجل من بعض القوم: وثنتين يا رسول الله! قال: «**وَثِنْتَيْنِ**». [البخاري في «الأدب المفرد» (78) وهو حسن] وقال ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»(1).

وإنَّ من العجائب ـ والعجائب جمَّةٌ ـ أن نرى آثار رحمة الوالدين تصل الغريبَ ويُحْرَمُ منها القريبُ، وينتفع بها ابن

(1) أبو داود (4943)، وصحَّحه الألباني.



الجار، ويضيق لها ابن الدَّار، وهذا سلوك مذموم وخلق مركوم يجب أن يتنزَّه عنه كل مربٍّ، فيحرص المسلم على أن تكون البداءة في الخير بنفسه وأهله كما في هذا الحديث الَّذي يتَّضح فيه هذا الخلق الرَّفيع والسُّلوك الحميد، فقد جاء في «الأدب المفرد» (89)، ومعناه في «صحيح مسلم» (2630) من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، فأعطت كلَّ صبيٍّ لها تَمْرَةً، وأمسكت لنفسها تمرَةً، فأكل الصِّبيان التَّمرتَيْن، ونظرَا إلى أمِّهمَا، فعمدت إلى التَّمْرَة فشقَّتها، فأعطت كلَّ صبيٍّ نصفَ تَمْرَة، فجاء النَّبيُّ ﷺ فأخبرته عائشة رضي الله عنها فقال ﷺ: «**أَوَمَا يُعْجِبُكِ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ رَحِمَهَا اللهُ بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيْهَا**».

ولقد أرسل الله محمَّدًا ﷺ رحمةً للعالمين، وغمر قلبه بالعلم والحلم، وجعل في خلقه من الإيناس والبرِّ، وفي طبعه من السُّهولة والرِّفق، وفي يده من السَّخاوة والنَّدى ما جعله أزكى عباد الله رحمةً، وأوسعهم عاطفةً، وأرحبهم صدرًا، ولذلك قال الله فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]

وقد لازمته هذه الفضائل السَّمحة مع أولاد بناته حتَّى في ساعات المناجاة ومواطن الخشوع؛ ليعلِّم أمَّته كيف تكون الرِّعايةُ والتَّربيةُ السَّليمةُ وأنَّ طريقَها المعاملة الرَّحيمة، وأنَّ القسوةَ في الإنسان دليلُ نقص كبير، وفي سياسة أمَّة دليلُ فساد خطير، روى البخاري (5996) ومسلم (543) عن أبي قتادة قال: «خرج علينا النَّبيُّ ﷺ وأمامةُ بنتُ أبي العاص على عاتقه فصلَّى، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها».

ففي هذا الحديث عظمُ قدر رحمة الولد؛ لأنَّه تعارض ـ حينئذ ـ المحافظةُ على المبالغة في الخشوع والمحافظة على مراعاة خاطر الولد فقدَّم الثَّاني، وفيه بيان تواضعه ﷺ وشفقته على الأطفال وإكرامه لهم جبرًا لهم ولوالديهم.

وقد تكرَّر هذا الخلق الرَّحيم منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مرَّات وفي صلاة الفريضة حيثُ كان يصلِّي بالنَّاس إمامًا، فقد ارتحله الحسن ابن ابنته فاطمة، فأطال السُّجود، فلمَّا فرغ قالت الصَّحابة: «يا رسول الله أطلت السُّجود»، فقال ﷺ: «**ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[2].

وفي «البخاري» (3749) ومسلم (2422) عن البراء قال: رَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ والحسن بن علي على عاتقه يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ**»، وكان يقول عن الحسن والحسين: «**هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا**»[3]، والمعنى أنَّهما ممَّا أكرمني الله وحباني به؛ لأنَّ الأولاد يُشَمُّونَ ويُقَبَّلُونَ فكأنَّهم من جملة الرَّياحين.

وكم هي عديدةٌ تلك المواطن الَّتي يَجْمُلُ بالمربِّي أن يجرِّبَ رحمتَهُ بأولاده ليحسَّ بقربهم منه وبقربهم منه.

فمِنْ مواطن الرَّحمة بالأولاد تقبيلُهم ومعانقَتُهم لا سيَمَا إذا كانوا صغارًا، وقد جاءت في ذلك نصوصٌ قوليَّةٌ وفعليَّةٌ فقد روى البخاري (5998) ومسلم (2317) عن عائشة أنَّها قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: تُقبِّلون الصِّبيان فما نقبِّلُهم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟**» وهذا استفهامٌ إنكاري، ومعناه النَّفي، أي: لا أَمْلِكُ ولا أقدر أن أجعل الرَّحمةَ في قلبك بعد أن نزعها الله منك.

وأطرف من هذا ما رواه البخاري ـ أيضًا ـ (5997) ومسلم (2318) من طريق أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قبَّل الحسن بنَ علي وعنده الأقرع بن حابس التَّميمي جالسًا، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثمَّ قال: «**مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ**».

وقد بلغ من رحمة النَّبيِّ ﷺ بأولاد بناته إلى صرف بعض أوقاته ليجلس إليهم، وربَّما قطع بعض أشغاله لأجلهم وليضمَّهم إلى صدره الفائض بالحنان والرِّقَّة، فعن يعلى بن مُرَّةَ أنَّه قال: «خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ ودُعينا إلى

(2) النَّسائي (1141).

(3) البخاري (3753).

طعام، فإذا حسين يلعب في الطَّريق، فأسرع النَّبيُّ ﷺ أمامَ القوم ثمَّ بسط يديْه، فجعل الغلام يفرُّ هاهنا وهاهنا ويضاحكه النَّبيُّ ﷺ حتَّى أخذَه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى في رأسه ثمَّ اعتنقه، ثمَّ قال النَّبيُّ ﷺ: «**حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْن، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الأَسْبَاطِ**»[4].

ومن مواطن الرَّحمة بالأولاد مضاحكتهم ومداعبتهم والمزاح معهم؛ لأنَّ ذلك يجلبهم كثيرًا ممَّا يدع مجالاً للوالدين لأنْ يُرَبُّوهم ويعلمُّوهم، والمداعبة ممَّا يحتاج إليها الطِّفلُ كحاجته إلى المأكل والمشرب، فإن حُرِمَ منها عاد ذلك عليه بالملل والاكتئاب والانزواء والانطواء، وهي آفات نفسيَّة وخيمة تورث الطِّفل عُقدًا يصعب حلُّها مستقبلاً، ولقد كان ﷺ يراعي هذا الجانب الحسَّاس في نفوس أصحابه الكبار حتَّى لا يملُّوا فضلاً عن الصِّغار حتَّى كانوا يقولون له: «يا رسول الله! إنَّك تداعبنا!» فكان يقول لهم: «**إنِّي لاَ أَقُولُ إلاَّ حَقًّا**»[5]، وكذلك كان أصحابه يتبادحون بالبطِّيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرِّجال [«الأدب المفرد» (266)].

وثبت عنه ﷺ كما في «الصَّحيحين» عن أنس بن مالك قال: إنْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ ليخالطنا حتَّى يقول لأخ لي صغير: «**يا أَبَا عُمَيْر! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**» وهذا الحديث ذكر بعض أهل العلم أنَّ فيه أكثر من ستِّين فائدة من وجوه الفقه وفنون الأدب، ومن فوائده: جواز الممازحة وتكرير المزاح، وأنَّها إباحة سنَّة لا رخصة، وأنَّ ممازحةَ الصَّبيِّ الَّذي لم يميِّز جائزةٌ، وتكرير زيارة المزوح معه.

وقال ابن مسعود: «خالط النَّاس ودينَكَ لا تكلمَنَّه، والدِّعابة مع الأهل»[6].

ومن مواطن الرَّحمة بالأولاد فسح مجال اللَّعب لهم حين يحتاجون إلى ذلك، لا سيما مع ظهور الملل والفراغ من الواجبات، قال الغزالي: «ينبغي أن يُؤْذَنَ له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللَّعب، فإنَّ منعَ الصَّبيِّ من اللَّعب وإرهاقه إلى التَّعلُّم دائمًا يميت قلبه ويبطل ذكاءَه وينغِّصُ عليه العيشَ حتَّى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا».

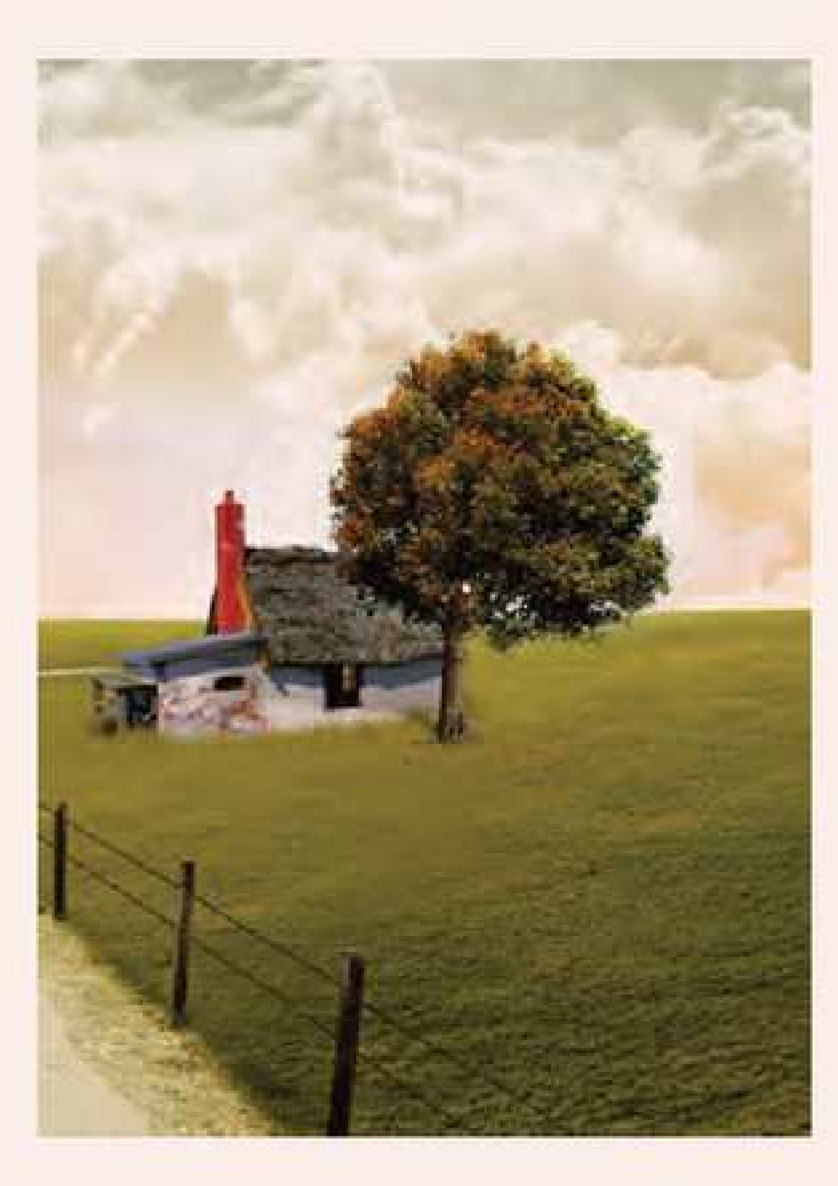
وقد كان النَّبيُّ ﷺ حريصًا على إعطاء الولد حقَّه في اللَّعب والتَّسلية شريطةَ أن لا يتجاوزَ الحدَّ؛ لأنَّه من الغلط أن يتَّخذَ اللَّعب حرفةً ـ كما قال الغزالي ـ، وإنَّما يُسْمَحُ به بالقدر الَّذي لا يُفَوِّتُ مصلحةَ العبد في الانتفاع بوقته، فهذه عائشة أمُّ المؤمنين زوجُ نبيِّ الرَّحمة ﷺ تقول: «كُنْتُ أَلْعَبُ بِالبَنَاتِ عند النَّبيِّ ﷺ وَكَانَ لي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعي، فَكَان رسولُ الله ﷺ إذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي»[7].

وروى البخاري (5993) من طريق أمِّ خالد بنت خالد بن سعيد قالت: «أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مع أبي وعليَّ قميصٌ أصفر، قال رسولُ الله ﷺ: «سَنَهْ سَنَهْ» قال عبد الله: «وهي بالحبشيَّة حسنةٌ»، قالت: «فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّة، فَزَبَرَنِي أَبِي، قال رَسُولُ الله ﷺ: «دَعْهَا».

وممَّا ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ الرَّحمةَ قد تَأْخُذُ أحيانًا طابعَ القسوة وليست كذلك، فالأطفال عندما يُساقون إلى المدارس كُرْهًا ويحفظون الدُّروسَ زجرًا فذلك رحمة بهم؛ لأنَّهم لو تُركوا وأهواءهم لقتلهم اللَّهو واللَّعب والفراغ، ولشبُّوا لا يحسنون صنعًا، فالرَّحمة بالأولاد ليست لينًا يطلق منها الحبل على الغارب، وليست حنانًا لا عقل معه، أو شفقةً تتنكَّر للعدل والنِّظام، وإنَّما هي عاطفةٌ تَرْعَى هذه الحقوق جميعًا، وسياسة تضع الولد في مأمن من النَّوازع الخاطئة والتَّصرُّفات السِّلبيَّة.

فلْيَنْظُرِ الآباءُ والأمهَّات والمربُّون والمعلِّمُون إلى هذه التَّعاليم النَّبويَّة فيأخذوها مأخذَ الجدِّ والتَّطبيق وليشدُّوا الحيازيم لأداء الأمانة على وجهها، ويجعلُوا من أخلاقهم ومعاملاتهم مرآةً للنَّاشئة وقدوةً صالحةً لهم، لينطبعوا على أخلاق متينة وعزائمَ قويَّة ودين صحيح ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان: 74].

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.



(4) التِّرمذي (3775).
(5) التِّرمذي (1990).
(6) البخاري معلَّقًا.
(7) البخاري (6130) ومسلم (2440).

خطورة دعوى استقلالية المقاصد عن الأدلة

■ عبد الرحمن محمد
ليسانس فقه وأصول، كلية الحضارة الإسلامية ـ وهران

في خضمِّ هذه الصَّحوة العلميَّة نحو منهج السَّلف في الاستدلال والفتوى والنُّهوض بها للعمل بكتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها ﷺ وفهم سلفها الصَّالح، هناك من لم يرضَوْا بذلك وسمَّوْا ذلك ظاهريَّةً جوفاءَ ورؤيةً في مقاصد الشَّريعة بعين عمياء، واتَّهموا الأئمَّة العلماء ببعدهم عن مراعاة مصالح العباد وعدم اعتبارهم ما آلت إليه الحياة في البلاد، سعيًا منهم لتحقيق ما يُسَمَّى بالاجتهاد المقاصدي، وجعل المقاصد الَّتي هي وليدة النُّصوص ضَرَّةً لها تنافسها في المكانة، وتقدَّم عليها في الدِّلالة، يقول الدُّكتور نور الدِّين الخادمي في رسالته «مقاصد التَّشريع الإسلامي» (ص1): «هناك دعوات لإقامة ما يعرف بعلم المقاصد الشَّرعية أو نظريَّة المقاصد، وهذه الدَّعوات منها ما هو مشروع ومفيد، ومنها ما هو غير مشروع ومفيد.

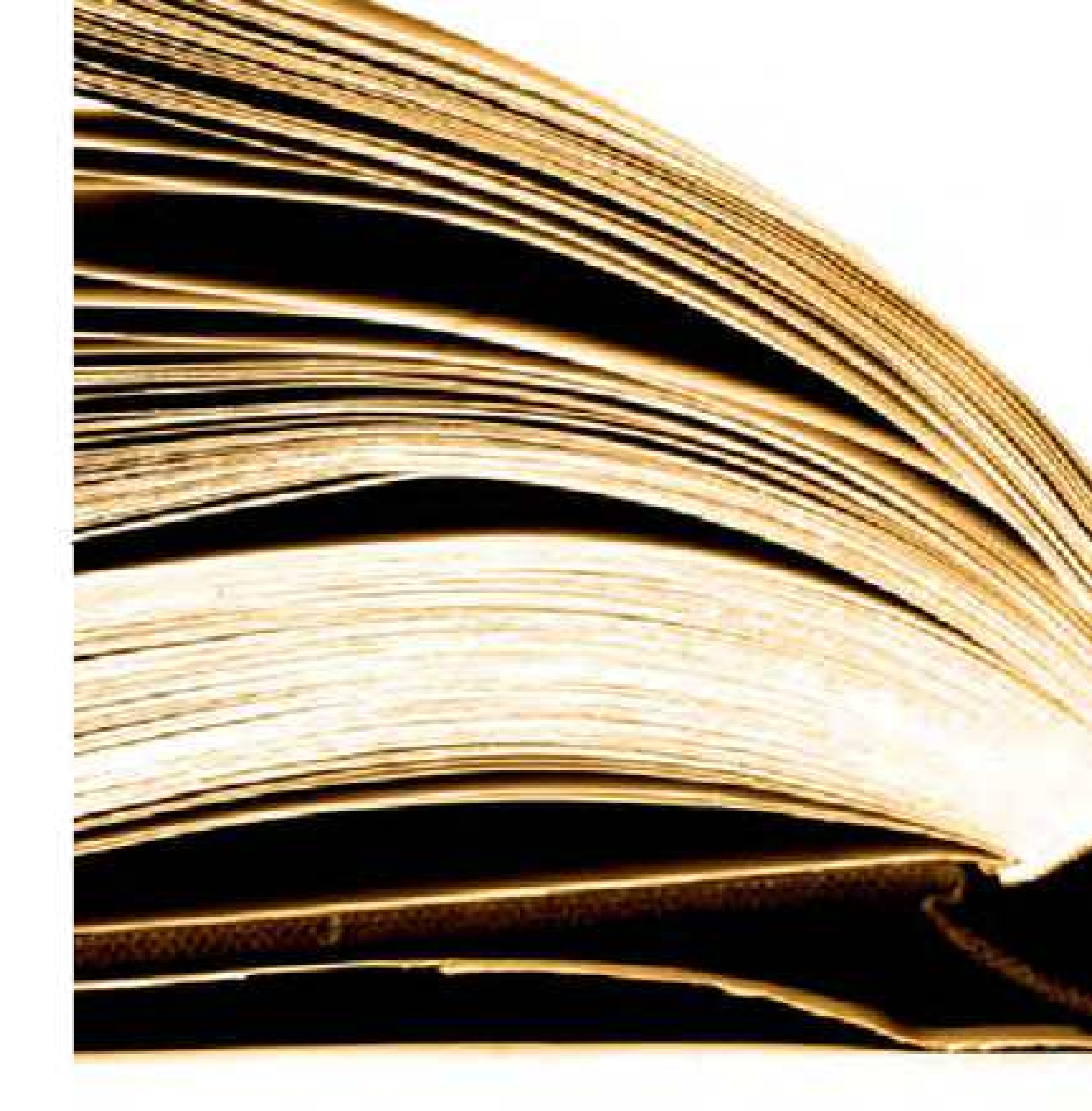
فالدَّعوات المشروعة لاستعمال المقاصد ترتكز على مراعاة الضَّوابط والقواعد الشَّرعيَّة، ولزوم اعتبار المقاصد التَّابعة للأدلَّة والنُّصوص وليست المستقِلَّة عنها.

أمَّا الدَّعوات غير المشروعة فهي تنطلق من الإفراط في المقاصد وجعلها أصلاً قائمًا بذاته، ودليلاً مستقلاً عن بقيَّة الأدلَّة الشَّرعيَّة المعتبرة، وهذا الأمر في غاية الخطورة لما فيه من تعسُّف على الأدلَّة وتمييع وتفويت للمقاصد نفسها؛ إذ المقاصد الحقيقيَّة لا تتحقَّق إلاَّ إذا ارتبطت بأدلَّتها ومواردها الدَّالَّة عليها والمفضية إليها»، ويقول ـ أيضًا ـ في كتابه «الاجتهاد المقاصدي» (ص135): «المقاصد مبنيَّة على التَّصرُّفات الشَّرعيَّة، وهي متوقِّفَةٌ على ما انْبنَت عليه وجودًا وعدمًا، فالدَّعوة إلى استقلالها عن أساسها وأصولها دعوةٌ إلى هدمها وطرحها؛ بذهاب ما انبنت عليه واستندت إليه».

ولقد نبَّه الشَّاطبي رَحِمَهُ الله إلى علاقة المقاصد بالأدلَّة الشَّرعيَّة من حيث إنَّ كلَّ دليل ثبت اعتبارُه في الشَّريعة فهو محقِّقٌ لمقصد شرعي، ويتضمَّن تحقيق المصالح ودرء المفاسد، فدليل إثباته واعتباره يَحْمِل في طيَّاته قصدَ الشَّارع إليه، يقول رَحِمَهُ الله في كتابه «الموافقات» (386/2): «إنَّ أحكام الشَّريعة تشتمل على مصلحة كلِّيَّة في الجملة وعلى مصلحة جزئيَّة في كلِّ مسألة على الخصوص.

أمَّا الجزئيَّة، فما يعرِب عنها كلُّ دليل لحكم في خاصَّته، وأمَّا الكلِّيَّة، فهي أن يكون كلُّ مكلَّف تحت قانون معيَّن من تكاليف الشَّرع».

فهذا المنهج الزَّائف الَّذي ظاهره تعظيم المقاصد وباطنه تقديم المصلحة على النَّصِّ وتقديم العقل على النَّقل الَّذي دندن حوله الطُّوفي في شرحه «للأربعين النَّوويَّة» وفي رسالته «رعاية المصلحة»، فهو ممَّن قيل فيه: «بنى قصرًا وهدم مصرًا»، ولقد تشبَّث هؤلاء فيما ذهبوا إليه بمزاعم أنَّ المقاصد مطلقةٌ عن الضَّبط والتَّقيُّد بالتَّعاليم والوسائل الشَّرعيَّة، وزعموا أنَّ القواعد الشَّرعيَّة التَّبعيَّة كالقياس والاستحسان والمصلحة المرسلة والعرف وقاعدة المشقَّة تجلب التَّيسير ونظريَّة اعتبار المآل؛ وظلَّت هذه المسالك عندهم هي الموصلة إلى استنباط الأحكام الَّتي لم تكن النُّصوص ولا الإجماعات قادرةً على احتوائها،



على ضوء تلك المصادر ملحوظا بصورة أكبر وكيفيَّة أعمق ممَّا عليه الاستنباط من النُّصوص، وهذا لا يلغي شرعيَّتها ويعني استقلالها.

كما أنَّهم تعسَّفوا في التَّعريفات؛ فحملوها محملاً سيِّئًا وادَّعَوْا أنَّها تدعو بجلاء إلى التَّعويل على المصالح في مقابل النُّصوص

فقالوا عن المصلحة المرسلة: هي المصلحة المطلقة الَّتي لا دليل على اعتبارها ولا على إلغائها، وهم مخطئون في ذلك، وما ذكروه إنَّما على مستوى عين المسائل، فالمصالح المُرْسَلَة عند العلماء هي معتبرة على مستوى جنسها؛ فهي ملائمة لتصرُّفات الشَّارع.

وقالوا عن معاني الاستحسان عند العلماء: إنَّها خادمة لما ذهبوا إليه، خاصَّةً قولهم: إنَّ الاستحسان ما ينقدح في ذهن المجتهد ولا يستطيع التَّعبير عنه، وما دَرَوْا أنَّ الاستحسان لا يخرج عن الشَّرع؛ بل كثير من جزئيَّاته مستندَةٌ إمَّا إلى النَّصِّ كالعرايا والإجارة، وإمَّا إلى الإجماع كعقد الاستصناع ودخول الحمَّام، وإمَّا إلى المصلحة كتضمين الأجير المشترك، فالمصلحة الَّتي ينبني عليها الاستحسان ليست مطلقةً عن القيود الشَّرعيَّة، يقول الشَّاطبي رحمه الله في كتابه «الموافقات» (209/4): «فهذا كلُّه يوضِّح لك أنَّ الاستحسان غير خارج عن مقتضى الأدلَّة إلاَّ أنَّه نظر في لوازم الأدلَّة ومآلاتها»، وقال - أيضًا - في (ص206): «فإنَّ من استحسن لم يرجع إلى مجرَّد ذوقه وتشهِّيه، وإنَّما رجع إلى ما علم من قصد الشَّارع في الجملة».

وقالوا عن العرف هو تحكيم للعوائد والتَّقاليد والممارسات الَّتي تتغيَّر زمانًا ومكانًا وحالاً، فالمعتبر عندهم تحكيمُ الأعراف ومسايرةُ النَّاس في نمطها، وما ذلك إلاَّ برهانٌ على أنَّ المصالح مستجيبةٌ للأعراف مسايرةٌ للعادات ولو تناقضت مع الشَّرع، وأخطأوا في ذلك؛ فإنَّ العرف ليس معتبرًا مطلقًا، فهو عند العلماء إمَّا ممَّا أثبته الشَّرع وأقرَّه كالحكم مثل القسامة، والمضاربة، أو مناطًا للحكم كالَّذي تعارف عليه النَّاس من أقوال وأفعال ممَّا تدور عليه عقودهم و تصرُّفاتهم.

وقالوا عن نظريَّة اعتبار المآل بأنَّه نظر إلى النَّتائج دون اعتبار ما أدَّت إليه من أسباب ووسائل، فقد تكون نتائج الازدهار الاقتصادي حاصلةً بالوسائل الممنوعة كالرِّبَا والمُكُوس، وتفسيرهم هذا تكريسٌ للقاعدة الفاسدة «الغاية تبرِّر الوسيلة».

أما قاعدة «المشقَّة تجلب التَّيسير» فقالوا: إنَّ المشقَّة ليست إلاَّ حالةً إنسانيَّةً يقدِّرُها المرء بنفسه، وأنَّ التَّيسير منوطٌ بمطلق المشقَّة، فأباحوا المحرَّمات لأخفِّ المشقَّات، يقول الإمام المقري رحمه الله في «قواعده» (327/1) مبيِّنًا علاقة المشاقِّ بالعبادات: «...تختلف المشاقُّ باختلاف العبادات، فما كان في الشَّرع أهمَّ اشترط في إسقاطه الأشقُّ الأعمُّ، وما لم تعظم مرتبته فإنَّه تؤثِّر فيه المشاقُّ الخفيفة، وبالطَّرفين يعتبر الوسط» فالمعتبر في المشاقِّ المشقَّةُ غير المعتادة، أمَّا المعتادة فلا اعتبار لها لملازمتها للعبادة في الغالب كما ذكر ذلك الإمام القرافي رحمه الله في «فروقه» (281/1) وكذا شيخه العزُّ ابن عبد السَّلام في «قواعده» (13/2) وأيضًا الإمام الشَّاطبي في «الموافقات» (244/1).

ولكنَّ الملاحظَ في ذلك أنَّ أهمَّ ما استدلُّوا به وأكثرَ ما اعتمدوا عليه: تصرُّفاتُ الأئمَّة الأعلام الَّتي قالوا بأنَّ الأئمَّة قدَّموا النَّظر المقاصدي على النُّصوص ممَّا يدلُّ ذلك على استقلاليَّة المقاصد عن الأدلَّة عندهم؛ كقضايا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في إسقاطه لحدِّ السَّرقة عامَ الرَّمادة، وسهم المؤلَّفة قلوبهم، والزِّيادة على أربعين جلدةً في حدِّ الخمر، وإيقاعه للطَّلاق ثلاثًا... إلاَّ أنَّ اللَّبيب يعلم أنَّ عمر رضي الله عنه لم يطرح النَّصَّ في قضاياه بل راعى المصلحة الَّتي في النَّصِّ، فإخراج النَّصِّ وعزله عن بيئته والمقام الَّذي قيل فيه والقرائن المحتفَّة به من قصَّة، أو سبب وإن كانت العبرة بعموم اللَّفظ إلاَّ أنَّ السَّبب الَّذي قيل النَّصُّ لأجله يوجِّه استدلال الفقيه

به كما نبَّه على ذلك ابن دقيق العيد والزَّركشي فيما نقله الشَّوكاني عنه تفويت للمعنى النَّصِّ، فمراعاة معاني النُّصوص حال ظهورها لازم، يقول الإمام ابن دقيق العيد في «إحكامه» (115/3): «واعلم أنَّ أكثرَ هذه الأحكام قد تدور بين اعتبار المعنى واتِّباع اللَّفظ، ولكن ينبغي أن يُنْظَرَ في المعنى إلى الظُّهور والخفاء، فحيث يظهر ظهورًا كثيرًا فلا بأس باتِّباعه وتخصيص النَّصِّ به أو تعميمه على قواعد القياسيِّين، وحيث يخفى أو لا يظهر ظهورًا قويًّا فاتِّباع اللَّفظ أولى»، فعمر رضي الله عنه رأى أنَّ المؤلَّفة قلوبهم أُعْطُوا لمَّا كان الإسلام ضعيفًا فاستمالهم الشَّارع تقويةً للدِّين، أمَّا لمَّا قوي فما الحاجة لإعطائهم؟! وكذلك إسقاطه الحدَّ عام الرَّمادة للشُّبهة، فالمجاعة ضرورةٌ ولقد أباح الشَّرع حال الضَّرورة أخذَ مال غيرك دفعًا للضَّرورة ولو بدون إذنه كما في الحديث، فكلُّ المسائل الَّتي نقلت عنه تتخرَّج على هذا، ولم يتمسَّكوا بأقضية عمر رضي الله عنه بقدر ما تمسَّكوا بفروع مذهب الإمام مالك، فادَّعَوْا عليه تقديم المصلحة على النَّصِّ وأنَّ المصلحةَ عنده هي المصلحة المطلقة، وتحكم على النَّص إمَّا بالإبطال عند بعضهم وإمَّا بالتَّخصيص عند آخرين، كما نسب ذلك إليهم الطُّوفي رحمه الله حيث قال: «اعلم أنَّ هذه الطَّريقة الَّتي ذكرناها ليس هي القول بالمصالح المرسلة على ما ذهب إليه مالك، بل هي أبلغ من ذلك لا يقدِّم رعاية المصلحة على نصٍّ خاصٍّ أو يقول بها في مقابلة النَّصِّ القطعي في سنده ودلالته، بل يؤكِّد أنَّ النَّصَّ والإجماع إن خالفها أيُّ مصلحة وجب تقديم رعاية المصلحة عليها بطريق التَّخصيص والبيان لهما، لا بطريق الافتيات عليهما والتَّعطيل لهما»، ويقول الدُّكتور علي حسب الله في كتابه «أصول التَّشريع» (ص255): «فإذا عارَضَتْ المصلحة نصًّا أو قياسًا كان ذلك مجالاً للبحث»، وأخذوا ذلك من بعض فتاويه زعموا أنَّه قدَّم فيها المصلحة على النَّصِّ؛ كتضمين الصُّنَّاع وضرب المتَّهم وتوظيف الخراج وقتل الجماعة بالواحد وجواز أكل ما زاد على الضَّرورة إذا عمَّ الحرام الأرضَ وبقتل الزِّنديق المستتر وغير ذلك ممَّا ذكروه عنه... ويجاب عن ذلك كلِّه بما يأتي:

أوَّلاً: المصلحة المرسلة عند مالك هي الَّتي اعتبر الشَّارع جنسَها وهي ما يسمَّى بالمصلحة الملائمة، ومن شرط اعتبارها عنده عدمُ مصادمتها للنُّصوص كما ذكر ذلك الإمام الشَّاطبي رحمه الله في «الاعتصام» (12/3) حيث قال: «الثَّاني: أن يلائم تصرُّفات الشَّارع وهو أن يوجد لذلك المعنى جنس اعتبره الشَّارع في الجملة بغير دليل معيَّن وهو الاستدلال المرسل المسمَّى بالمصالح المرسلة الَّتي ذهب مالك إلى اعتبارها».

ثانيًا: كلُّ ما نقلوه عنه ليس من قبيل تقديم المصلحة المحضة على النَّصِّ، وإنَّما هو إمَّا من قبيل تقديم المصلحة العامَّة على الخاصَّة وتخصيص النَّصِّ بمجموع النُّصوص وعليه يتخرَّج تضمينه للصُّنَّاع؛ فإنَّهم لم يذكروا ما هو الدَّليل الَّذي قدَّم مالك عليه المصلحة سوى ترديدهم لعبارة الشَّاطبي في «الاعتصام» (69/3): «إنَّ الأُجَرَاء مؤتمنون بالدَّليل لا بالبراءة الأصليَّة» والحقُّ أنَّ هذه الفتوى لا تخالف دليلاً شرعيًّا، بل هي تحقيق لمناط حكم شرعي ثابت بالنَّصِّ وهو: «البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي وَاليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» وذلك راجع إلى تفسير المراد بالمدَّعي و المُدَّعَى عليه، فإذا قلنا إنَّ من يدَّعي خلاف الظَّاهر الغالب يعدُّ مدَّعيًا فسيكون الصَّانع عند غلبة الخيانة على طبقة الصُّنَّاع مدَّعيًا يلزمه في دعواه التَّلف إقامةُ البيِّنة على عدم التَّعدِّي أو التَّفريط؛ لأنَّه يدَّعي خلاف الغالب على طبقته، أمَّا إذا كان الغالبُ على طبقته الأمانة فسيكون مدَّعًا عليه يلزمه في دعواه التَّلف اليمين، فهذا هو مأخذ الفتوى، وإمَّا من باب دفع أشدِّ الضَّررين.

وعليه؛ قوله بتوظيف الخراج وبيعة المفضول مع وجود الأفضل أو من باب المحافظة على النَّفس، وإليه يرجع قتله الجماعة بالواحد وجواز أكل ما زاد على الضَّرورة إذا عمَّ الحرام الأرض، وكذا فتواه بمصادرة ما ارتكبت به أو فيه الجريمة كمصادرة الزَّعفران المغشوش والتَّصدُّق به على الفقراء... أمَّا المصالح غير الدَّاخلة تحت هذا الجنس ممَّا نُسِبَ إلى مالك فليس من باب المصالح المرسلة، بل من باب استنباط مناط الحكم بطريق الاجتهاد كفتواه

بجواز التَّسعير، وتلقِّي الرُّكبان في بعض الحالات، فمالك استخرجَ مناطَ النَّصِّ بالاجتهاد وألحقَ به، وهذا معلوم عند الأئمَّة، يقول الشَّاطبي في «الموافقات» (89/1): «إنَّ للأصوليِّين قاعدةً هي أنَّ المعنى المناسب إذا كان جليًّا سابقًا للفهم عند ذكر النَّصِّ صحَّ تحكيم هذا المعنى في النَّصِّ بالتَّخصيص له أو الزِّيادة عليه» أو من باب العرف كعدم إلزام الزَّوجة الشَّريفة بالإرضاع، يقول ابن رشد الحفيد في «بداية المجتهد» (46/2): «وأمَّا من فرَّق بين الدَّنيئة والشَّريفة فاعتبر في ذلك العرف والعادة» أو كان سنده فيها إجماع أهل المدينة؛ كقبول شهادة الصِّبيان في الجراح فيما بينهم قبل أن يتفرَّقوا، وفتواه المرأة الَّتي تباعدت حيضتها بأنَّها تعتدُّ بثلاثة أشهر بعد مدَّة استبراء قدرُها تسعةُ أشهر، وأمَّا فتواه بقتل الزِّنديق المستتر فليس بالمصلحة بل بالنَّصِّ بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر] قالوا: البأس السَّيف، وبعضها مصالح شهدت النُّصوص لأعيانها كالأكل من الغنيمة عند الحاجة وقطع شجر الحرم المؤذي، أمَّا ما ينسبونه إلى مالك من تجويزه لضرب المتهَّم فليس بصحيح ولا تنسب إليه بل النُّصوص الَّتي في المدوَّنة لم تتعرَّض لذلك، وإنَّما تعرَّضت لصحَّة الإقرار بعد الإكراه بالضَّرب أو غيره فكيف يُعْقَلُ هذا وهو يعتبر السِّجن وغيره تهديدًا يُقَالُ المُقِرُّ بعده، فقد جاء في «المدوَّنة» (548/4): «قال مالك: من أقرَّ بعد التَّهديد أقيل، فالوعيد والقيد والتَّهديد والسِّجن والضَّرب تهديد عندي كلُّه» وكذلك ما ينسبونه إليه من ردِّه خبر الآحاد بالمصلحة المطلقة فدعوى لا دليل عليها، فقد نسب ذلك إليه بعض الكُتَّاب... إلاَّ أنَّ المصلحة الَّتي يقدِّمها مالك على النَّصِّ هي المصلحة الَّتي شهدَ لها أصلٌ قطعي كقاعدة رفع الحرج وسدِّ الذَّرائع، لا مصلحة مطلقة، فتقديمه للمصلحة هو تقديم للنُّصوص الَّتي شهدت لها، ففي تصرُّفات بعض الصَّحابة ما يشهد لهذا، فعائشة ردَّت حديثَ «إنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْه» لمخالفته لأصل كلِّي وهو ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164] وأيضًا ردُّها وابن عبَّاس لحديث أبي هريرة في غسل اليدين قبل إدخالهما في الإناء استنادًا للأصل رفع الحرج بقولهما: «فكيف يصنع بالمهراس؟» وهو إناءٌ يسع ماءً كثيرًا.

فممَّا مرَّ معنا ندرك أنَّ المقاصد سلاحٌ ذو حدَّين، فكما يمكن استخدامها في الخير يمكن توظيفها في الشَّرِّ ولذلك يجب على العلماء والمتعلِّمين الإحاطة بهذا العلم وامتلاك أدواته وآليَّاته بغيةَ تطبيقه بوجه حسن بكيفيَّة مرضيَّة تنفي عن الاجتهاد والاستنباط التَّعسُّف في التَّفسير والتَّطويع في التَّأويل والإساءة في القصود والنَّوايا كما تبعد بنفس الحرص والاهتمام التَّفسير الظَّاهري والحرفي للنُّصوص الَّذي لا ينظر إلاَّ إلى المباني والظَّواهر والصُّور دون أن يُعْمِلَ الفكرَ في المعاني والمقاصد، فالنَّظر المقاصدي الأصيل يقوم بالموازنة بين ظاهر النَّصِّ ومقصوده وبين مبناه ومعناه وَفْقَ ميزان الشَّرع كما ذكر ذلك الدُّكتور نور الدِّين الخادمي في كتابه «علم المقاصد الشَّرعيَّة».

❁❁❁





واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

رمضان عند الصَّحابة

■ قال الشَّيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ:

«لقد قدَّر الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قدرَ هذه العبادة، وفقهوا أسرارها؛ فظهرت عليهم آثارها، وجَنَوْا ثمراتها؛ فكانوا خير أمَّة عرفها التَّاريخ عدلاً وفضلاً، وبساطةً في العيش، ورقيًّا في العقل، وحرِّيَّةً واحترامًا للنِّظام».

[«آثار مبارك الميلي» (2/515)]

□□□

حتى لا يختلف الدُّعاة

■ قال الشَّيخ صالح الفوزان حفظه الله:

«فالدَّعوة إلى الله مقام شريفٌ وعملٌ جليلٌ ولا بدَّ منها، ولكن لا بدَّ من الفقه في الدَّعوة بحيث تدعو النَّاس إلى الله ـ عز وجل ـ على بصيرة، ولا بدَّ من معرفة ماذا يُشْتَرَطُ في الدَّاعية إلى الله عز وجل حتَّى تكون الدَّعوة سائرةً على منهج سليم، وحتَّى لا يحصل اختلافٌ بين الدُّعاة إلى الله؛ فإنَّه ينجمُ الاختلاف مع الجهل، أمَّا إذا تفقَّه الدُّعاة في الدَّعوة إلى الله وعرفوا المنهج الصَّحيح فلن يختلفوا أبدًا للقيام بها، إنَّما يحصل الاختلاف إذا دخل في الدَّعوة من ليس أهلاً لها، ومن لم يتأهَّل لها بالعلم النَّافع والإخلاص لله عز وجل فحينئذ يحصل الاختلاف، أمَّا إذا تفقَّه الدُّعاة في الدَّعوة وخلصت نيَّتهم لله عز وجل وصار مقصودهم وجه الله عز وجل فلن يختلفوا أبدًا، وإنَّما يتعاونون ويكونون يدًا واحدةً، يتعاونون على البرِّ والتَّقوى».

[«مجموعة رسائل دعوية ومنهجية» (ص682 ـ 683)]

□□□

القلم الجامع

■ قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«القَلَمُ الجامع: وهُوقلمُ الرَّدِّ على المُبطلين ورفْع سُنَّة المُحقِّين، وكشف أباطيل المُبطلين، على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيانِ تناقُضهم وتهافُتهم وخُروجِهم عن الحقِّ ودخُولهم في البَاطل؛ وهذَا القلمُ في الأقلام نظيرُ الملوك في الأنَام، وأصحابُه أهلُ الحجَّة النَّاصرون لما جاءت به الرُّسُل المُحاربون لأعدائهم، وهُم الدَّاعون إلى الله بالحكمَة والموعظة الحَسَنة، المُجادلون لمن خرجَ عن سَبيله بأنواع الجدال؛ وأصحابُ هذا القَلم حربٌ لكُلِّ مبطِل، عدُوٌّ لكُلِّ مُخالف للرُّسُل، فهُم في شأن وغيرُهم من أصحَاب الأقلام في شأن».

[«التبيان في أقسام القرآن» (ص 310)]

□□□

أمنية

■ قال الشَّيخ الطَّيِّب العقبي رَحِمَهُ اللهُ:

«أتمنَّى أن يوحِّد ذوو العلم الصَّحيح صفوفهم، ويجمعوا شتاتهم حتَّى يكوِّنوا من مجموعهم جبهةَ دفاع قويَّة تقف في وجه ذوي العقائد الزَّائفة؛ لتردَّ إفك الأفَّاكين، وتدحض حجج الدَّجَّالين، وأنَّهم متى كانوا كذلك لا تكاد تسطو عليهم أفاعي المراوغين، ولا تلدغهم عقارب المنافقين».

[«الشِّهاب» (11/117)]

□□□



درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

■ «وأمَّا الاختلافُ في الأحكَام فأكثَرُ منْ أنْ ينْضبطَ، ولو كانَ كُلَّما اختلفَ مُسْلمَانِ في شيءٍ تهاجرَا لَمْ يبْقَ بينَ المُسْلمينَ عصْمَةٌ، ولا أخُوَّةٌ، ولقد كانَ أبو بَكْرٍ وعمَرُ رضي الله عنهما سَيِّدَا المسلمينَ يتَنازعانِ في أشيَاءَ لا يَقْصِدَانِ إلَّا الخيْرَ ..».

[«مجموع الفتاوى» (173/24)]

□□□

■ «ليسَ لأحدٍ أن يحملَ كلامَ اللّه ورسوله على وفْقِ مذهبه إن لم يتبَيَّن من كلام اللّه ورسوله ما يدُلُّ على مُراد اللّه ورسُوله؛ وإلَّا فأقوالُ العُلماء تابعةٌ لقَول اللّه تَعالى ورسُوله ﷺ ليسَ قولُ اللّه ورسُوله تابعًا لأقوالهم؛ فإذَا كانَ في وجُوب شيءٍ نزاعٌ بينَ العُلماء، ولفظُ الشَّارع قَد اطَّرَد في معنًى؛ لم يجُزْ أن يُنقَض الأصْلُ المعروفُ من كلام اللّه ورسوله بقَولٍ فيه نزاعٌ بينَ العُلماء».

[«مجموع الفتاوى» (35/7)]

□□□

■ «لو فُرضَ أنَّا علمْنَا أنَّ النَّاسَ لا يتركُون المُنكَر، ولا يعترفُون بأنَّه مُنكَر لم يكُن ذلكَ مانعًا من إبلاغ الرِّسالة وبيانِ العلم، بل ذلكَ لا يُسقطُ وجوبَ الإبلاغ، ولا وجوبَ الأَمر والنَّهي في إحدى الرِّوايتَيْن عن أحمد، وقول كثيرٍ من أهلِ العلم».

[«اقتضاء الصِّراط المستقيم» (172/1)]

□□□

■ «وفي ذلك بيانُ أنَّ كلَّ علم دينٍ لَا يُطلَبُ منَ القُرآن، فهُو ضلالٌ كفاسد كلَام الفلاسفَة والمتكلِّمَة والمتصَوِّفَة والمتفقِّهة، وكلُّ عَاقل يتْرُكُ كتابَ اللّه مُريدًا للعُلوِّ في الأرض والفسَاد فإنَّ اللّه يقصمُه؛ فالضَّالُّ لم يحصُل لهُ المطلُوبُ بل يُعذَّب بالعمَل الَّذي لَا فَائدَة فيه والجبَّارُ حصَّل لَذَّةً فقَصَمه اللّه عليهَا، فهَذَا عُذِّب بإزاء لذَّاته الَّتي طلبَهَا بالبَاطلِ وذلكَ يُعذَّب بسَعْيه البَاطلِ الَّذي لم يُفده».

[«الاستقامة» (21/1)]

□□□

■ «لقَد تأمَّلتُ أغلبَ ما وقَع النَّاسُ في الحيَلِ فوجدْتُه أحَدَ شيئَين: إمَّا ذنوبٌ جوَّزُوا عليها تضييقًا في أمُورهم، ولم يستَطيعوا دفعَه إلَّا بالحيل، فلمْ تزدْهُم الحيل إلَّا بلاءً، كما جرى لأصحَاب السَّبت منَ اليهُود، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وهذا الذَّنبُ ذنبٌ عمليٌّ.

وإمَّا مبالغَةٌ في التَّشديد لما اعتَبروه من تحريم الشَّارع فاضطَرَّهُم هذَا الاعتقادُ إلى الاستحلال بالحيل؛ وهذَا من خطَأ الاجتهاد.

وإلَّا فمَن اتَّقى اللّهَ وأخَذَ ما أحلَّ لهُ، وأدَّى ما وجَبَ عليه، فإنَّه لا يُحوجُه إلى الحيل المبتَدعة أبدًا، فإنَّه سُبحانَه لم يجعَل علينَا في الدِّين من حرج؛ وإنَّما بُعث نبيُّنا بالحنيفيَّة السَّمحَة، فالسَّبَب الأوَّل هُو الظُّلم، والثَّاني عدمُ العلم، والظُّلم والجهلُ هُما وصفٌ للإنسانِ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾».

[«مجموع الفتاوى» (29/45 ـ 46)]

□□□

■ «وقَد يفعلُ الرَّجُل العَملَ الَّذي يعتَقده صالحًا، ولا يكونُ عالمًا أنَّه منهيٌّ عنه، فيُثاب على حُسْن قَصْده، ويُعفى عنه لعَدم علمه؛ وهذا بابٌ واسعٌ.

وعامَّة العبادات المبتَدَعة المنهيِّ عنهَا، قَد يفعَلُها بعضُ النَّاس، ويحلُّ له بها نوعٌ منَ الفَائدة، وذلكَ لا يدلُّ على أنَّها مشروعَة؛ بل لو لم تكُن مفسَدتُها أغلب من مصلحَتها لما نُهيَ عنها؛ ثمَّ الفاعلُ قَد يكونُ متأوِّلا، أو مخطئًا مجتَهدًا أو مقلِّدًا، فيغفر له خطؤه ويُثاب على ما فعَله منَ الخير المشروع المقرُون بغَير المشروع، كالمجتَهد المخطئ..».

[«اقتضاء الصِّراط المستقيم» (290/2)]

□□□



■ نشكر الأخ الكريم عبد الحميد بن طاهر - وفقه الله - من ولاية سعيدة شكرًا جزيلاً على ثنائه العاطر على مجلَّة «الإصلاح» وإخوانه القائمين عليها.

أمَّا عن تمنِّيه لصدور المجلَّة كلَّ شهر، فذلك راجع إلى النِّظام المسطَّر من القائمين عليها.

وأمَّا فيما يتعلَّق بعدم وصول المجلَّة إلى مدينة سعيدة فسيعالج أمرها مع مصلحة التَّوزيع، والله الموفِّق.

□□□

■ وصلنا سلام حارٌّ من الأخ الوفيِّ تكليت حنايف - حفظه الله - من منطقة بني ورتلان، ونقول له: أحبَّك الله الَّذي أحببتنا له.

□□□

■ والشكر موصول إلى الأخ المفضال أبي جهينة فريد بالو - سدده الله - من مدينة وادي البردي ولاية البويرة على أبياته الشِّعرية، منها قوله:

شبهةٌ وشهوةٌ على القلب قد هجما
وأرى القلب عن حربهما أحجما
تأمَّل في هدى الرَّحمن ريثًا
تجده يشرح الصَّدر الكئيبا

نسأل الله تعالى أن يزيده توفيقًا وسدادًا.

□□□

■ وأما الأخت الفاضلة الَّتي رمزت لاسمها بحرفي (ل.ز) من ولاية المسيلة، فقد أرسلت إلينا قصيدةً تحثُّ فيها على تقوى الله والاستعداد للقائه، جاء فيها:

لك الحمد يا من تنزَّهتَ عن النُّقصانِ
وخَضَعَتْ لعظمتِك معشرُ الثَّقلان
على العرش اسْتَوَيْتَ لعلوِّ شأنكَ
وخَشَعَتْ لك القلوب والأبدان
فلا تغرَّنا الدُّنيا بزينتها فإنَّها
فانية، وإن طالت بها الأزمان
والمتَّقون يومها مستبشرة وجوههم
وأزلفت لهم دار الخلود والرِّضوان
والظَّالمون يومها مسودَّةٌ وجوههم
ويستسلمون لربِّهم بعد فوات أوان

نشكرها على هذه المحاولة الطَّيِّبة، ونرجو لها مزيدًا من العناية بالصِّناعة الشِّعريَّة، والله يحفظها ويوفِّقُها.

□□□

■ وأرسلت إلينا الأخت الكريمة (د.ن) من منطقة سيدي عيسى ولاية المسيلة خطابًا مفعَمًا بالتَّقدير والثَّناء على المجلَّة والقائمين عليها، فجزاها الله خيرًا في الدُّنيا والآخرة.

أمَّا طلبها فسيؤخذ بعين الاعتبار، ونسأل الله أن يعيننا على صيام رمضان وقيامه إيمانًا واحتسابًا.

□□□

■ ولا ننسى شكر الأخ المحترم عبد الله محمَّد بن عبد الله من رقان ولاية أدرار، على كتابه المرقوم بخطٍّ جميل وألفاظ أجمل، ضمَّنه اقتراحات مهمَّة المقصودُ منها معالجة موضوع تربية الأطفال وتوجيه الكبار، والاهتمام بقضايا الأسرة والمجتمع.

فنسأل الله التَّوفيق للأخذ بها وتحقيقها، على أنَّ مجلَّتنا الغرَّاء لم تغفلها مطلقًا.

أمَّا النُّسخة الثَّانية من العدد (29) فهي هديَّةٌ له.

□□□

■ وبارك الله في الأستاذ يحيى أبي محمَّد من مدينة بلعباس؛ الَّذي أرسل قصيدةً نظم فيها مقال: «هل السَّلفيَّة خطر على الجزائر»، وهي محاولة جادَّةٌ ومشاركة طيِّبةٌ يشكر عليها، مطلعها:

لقد سرَّ الفؤادَ بيانُ حقٍّ
تجلَّى في دجى ليل بهيم
كنجم ضاء في ليل طويل
يقاسيه المُسَهَّد بالهموم
فآنس وحشةً وأزاح همًّا
بإذن الله مالكنا العظيم

□□□

■ أما الأخ المفضال سليم وينز ـ وفقه الله ـ من بلديَّة قنواع دائرة الزَّيتونة ولاية سكيكدة، فجزاه الله خيرًا وأحسن إليه على حسن ظنِّه بإخوانه، وشكره لهم.

وأمَّا فيما يخصُّ طلبه، فسينظر فيه ويُلَبَّى إن شاء الله، حسب الاستطاعة.

□□□

■ كما أرسل إلينا الأخ الحبيب هشام حاج عبد القادر ـ حفظه الله ـ من بلديَّة موزاية ولاية البليدة، مقالاً في بيان قواعد أهل السُّنَّة والجماعة في منهج التَّلقِّي والاستدلال، وضرورة الرُّجوع إليها.

فنشكره على تواصله مع المجلة، ونسأل الله تعالى أن يزيدنا وإيَّاه إيمانًا وفقهًا وثباتًا.

□□□

■ وهذا الأخ المبجَّل ناصر بوساحة ـ بارك الله فيه ـ من ولاية الجلفة، بعث إلينا قصيدةً في الذَّبِّ عن الدَّعوة السَّلفيَّة والرَّدِّ على الطَّاعنين فيها، وكلُّها دلالة على غيرته على السُّنَّة وأهلها، مطلعها:

يا طاعني في عقيدتي ومنهاجي
ولائمي في اتِّباع نهج من سلفا
أتزدري صحب النَّبيِّ محمَّد
وتابعيه من قد أحرز الشَّرفا
فإنَّهم للدُّجى سرج بل أنجم
بنورها دين الله قد عرفا

فجزاه الله خيرًا وزاده علمًا وحرصًا.

□□□

■ والشُّكر الموفور الدَّائم لأخينا الفاضل أبي عماد مجاهد الحبلالي، على قصيدته النُّونيَّة الكاشفة لعدوان الرَّوافض على دين الإسلام المبيِّنَة لأباطيلهم، فجزاه الله خيرًا على غيرته على السُّنَّة والذَّبِّ عن أهلها، مطلعها:

عدوان الرَّوافض قد شحن
نصرةً للآل على النَّاصبين
هكذا قالوا ليتهم وقفوا
عند حدٍّ وكانوا من النَّاصحين
حرب أعلنوها على الأمَّة
بعد حكم بجهل على المستعين

□□□

■ أمَّا الأخ المكرَّم محمَّد التَّيمي: فنشكره جزيلاً على حسن ظنِّه بإخوانه المشايخ والقائمين على المجلَّة، والله نسأل أن يجعلهم خيرًا ممَّا يظنُّ بهم.

□□□

■ ونشكر الأخ المبارك زيادي هشام من منطقة سيدي علي بسيدي بلعبَّاس على خواطره القيِّمة الَّتي نظمها في قصيدتين:

الأولى: في مدح الجزائر وإسلامها وأصالتها ومجاهديها وإغاظة فرنسا وإدانتها؛ مطلعها:

يا فرنسا حان وقت الحساب
انسيْ زمن الانتداب
هذي أجيال مجد قد
وعدت بالنَّصر في السُّنَّة والكتاب

والثَّانية: في مدح فتاة مستقيمة معتزَّة بدينها ولباسها الشَّرعي؛ مطلعها:

في سواد ليل تمشي
مشيًا عنتري
في إباء عربي
ترفع عزًّا سرموي
يقول سوادها لا أبالي
فهذا جلباب إسلامي

فجزاه الله خيرًا على غيرته على الدِّين والعرض والوطن.

□□□

■ والشكر الجزيل موصول إلى الأخت (أ.ل) من بلدية برهوم ولاية المسيلة على قصيدتها الميمية التي خطتها يمينها، وكلها مدح وثناء لمجلَّة الإصلاح والقائمين عليها.

نسأل الله أن يغفر لهم ما لا يعلمون، ويجعلهم خيرًا مما يظنون.

ومطلع القصيدة:

أنتم القمر ملأ الدنيا ضيـــاء
أنـتـم الـفـجر أزاح الـظــــلام
فرحت بمقدمكم فكنتم حلمي
أنتم كالربان يقود الفلك للأمام
وضعتم الدواء على جرح دام
فإني والكل يدعو لكمً بالرقي على الدوام

جعلها الله دومًا من أنصار الحق والسنة، وزادها علمًا وثباتًا.

□□□

■ وأرسل إلينا الطالب أحمد بن عبد الرحمن ناصري من بلدية تين زواتين ولاية تمنراست قصيدة في الذب عن السنة والانتصار للمنهج السلفي، مطلعها:

خابت مساعيك في الآفاق يا خلفي
إذ عـبـتـنـي باعتناق المنهج السلفي
إن كـان ذلـك عيـبـا قـد أتيت بـه
فلست ما دمت عن عيبي بمنصرف
تالله مـا ذاك إلا تــاج فــاخــرنــا
مـا ظـنـكـم بالـذي ينجي من التلف

فجزاه الله خيرا على غيرته على الإسلام والسنة.

□□□

■ أما إخواننا من مكتبة الريان بولاية الوادي فجزاهم الله خيرا على فرحهم بالمجلة وحسن ظنهم بإخوانهم القائمين عليها، وسينظر إن شاء الله في اقتراحهم إدراج منبر الجمعة تذكر فيه خطبة أحد المشايخ ليستفاد منها.

فعسى أن يكون قريبًا.

والله المستعان وعليه التكلان.

□□□

■ وصلت إلينا رسائل كثيرة من ولايات متعدِّدة تحمل الإعجاب بمجلَّة «الإصلاح» والثَّناء العاطر على القائمين عليها.

فجزى الله جميع إخواننا القرَّاء على حسن ظنِّهم بإخوانهم، وجعلهم الله دومًا أوفياء لمجلَّتهم الغرَّاء.

□□□

